

المحاضرة الأولى

أوضاع البلاد السياسية قبيل حكم الملك عبد العزيز

تمهيد :

وجدت عدة قوى سياسية في شبه الجزيرة العربية قبيل استعادة الملك عبد العزيز للرياض عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م، خصوصاً المنطقة التي تكونت منها لاحقاً المملكة العربية السعودية، ويمكن توضيح ذلك من خلال الاستعراض التالي:

١- الحجاز:

اهتمت الدولة العثمانية بالحجاز، ولما انتصرت الدولة السعودية الأولى على الشريف غالب عام ١٢١٠هـ، أرسلت الدولة العثمانية من العراق حملتين عسكريتين ضد الدولة السعودية، لكنهما فشلتا، وأصبح الحجاز تحت حكم الدولة السعودية، ثم كلفت الدولة العثمانية محمد علي باشا والي مصر، باستعادة الحجاز والقضاء على الدولة السعودية، وقد نجح في مهمته، وأصبح الحجاز مركز قوته في الجزيرة العربية. وأصبح محمد علي باشا بعد وصوله مكة عام ١٢٢٨هـ، هو الذي يختار شريف مكة، ويتدخل في إدارة الحجاز، وقد وكل أمور القبائل إلى الشريف شنير بن مبارك، بعد أن عين يحيى بن سرور شريفاً على مكة. كما قام إبراهيم باشا بتعيين ابن أخته أحمد باشا يكن محافظاً لمكة وحاكماً عاماً للحجاز، وقائداً للجيش في الجزيرة العربية. ساهم الإجراءات المصرية في توتر العلاقات بين شريف مكة والذين عينتهم مصر في مناصب متعددة، وانقسمت القبائل الحجازية بينهم، وأخير قرر محمد علي باشا تعيين محمد بن عون الذي ينتمي إلى فرع آخر من الأشراف، شريفاً على مكة عام ١٢٤٣هـ. وشارك محمد بن عون بالقضاء على الثورة في عسير، وازداد نفوذه بين القبائل الحجازية، مما دفع الدولة إلى استبداله بعد خروج الجيش المصري من الحجاز والجزيرة العربية عموماً. وجاء إلى الشرافة عام ١٣٢٦هـ، الشريف الحسين بن علي بن محمد بن عون، الذي قاد بالتعاون مع بريطانيا ما عرف في تاريخ العرب الحديث بالثورة العربية ضد العثمانيين، والذي أدى خلافه مع الملك عبد العزيز آل سعود إلى نهاية حكم الأشراف للحجاز. كما سيتضح لاحقاً.

٢- عسير :

تحمس زعماء وأهالي عسير لمبادئ الدعوة السلفية النجدية، واشتركوا في مقاومة الجيش المصري، خصوصاً بعد نهاية الدولة السعودية الأولى. ولما تولى محمد بن عائض زعامة عسير عام ١٢٧٣هـ، قرر إخراج قوات العثمانيين من البلاد الساحلية، وأخرجهم من صيبا، لكن اضطر إلى الانسحاب. وصممت الدولة العثمانية على احكام سيطرتها على عسير، وتمكنت قواتها من قتل محمد بن عائض، عام ١٢٨٩هـ، وأصبحت عسير متصرفية تتبعها ستة مراكز، لكن ذلك لم يمنع ظهور حركات مقاومة تولى قيادتها علي بن محمد بن عائض، لكن لم ينجح. ثم تحسنت علاقة ابنه حسن مع العثمانيين وعينوه معاوناً لمتصرف عسير، ولما اضطرت الدولة العثمانية إلى سحب قواتها من جزيرة العرب بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، استقل الأمير حسن بن عائض بعسير، ولما اختلف مع زعماء القبائل في بلاده، توسط الملك عبد العزيز بينهما، لكن الأمير لم يقبل وساطته، فتوترت العلاقات بينهما، ثم هاجمت قوات الملك عبد العزيز ابن عائض، وأدخلت عسير تحت الحكم السعودي، كما سيتضح لاحقاً.

٣- المخلاف السليماني (جازان) :

لم يقف حمود بن محمد زعيم المخلاف موقفاً ودياً من الدولة السعودية الأولى، وكانت علاقاته سيئة بزعماء عسير. وعندما اشتدت هجمات محمد علي باشا ضد العسيريين رأى زعماءهم أن يغروا الشريف حمود بالتحالف معهم، وقد وافق حمود على مساندتهم، لكن قواته انهزمت أمام حملة محمد علي باشا عام ١٢٣٣هـ، ومات حمود بعد المعركة بأيام قليلة. وتولى بعده ابنه أحمد، وقد تمكنت حملة مصرية بقيادة الشرف علي حيدر، من القبض عليه في أبي عريش، وتولى الحكم هناك علي بن حيدر تابعاً لمحمد علي. واستمر النزاع بين زعماء عسير من جهة وأشراف جازان من جهة أخرى، وتبع حاكم جازان أحياناً إلى عسير كما حصل زمن عائض بن مرعي وابنه محمد، لكن انتصار العثمانيين عليه أدى إلى استيلائهم على المناطق التابعة له، ومن بينها المخلاف السليماني. وظلت السلطة الحقيقية هناك للعثمانيين حتى استقلال السيد الإدريسي عنهم. كان السيد أحمد بن إدريس صاحب طريقة صوفية. انتقل من المغرب إلى مكة، ثم استقر به المقام في صيبا عام ١٢٤٦هـ، ونشر طريقته في البلاد، ومات عام ١٢٥٣هـ. وقد ولد حفيده محمد بن علي في صيبا عام ١٢٩٣هـ، وتنقل بين مكة والقاهرة، حيث تعلم في الأزهر لست سنوات، وانتقل إلى مركز السنوسية في ليبيا، ثم إلى السودان، وأخيراً عاد إلى صيبا وبدأ نشاطه الديني والسياسي. كان والي عسير

سليمان شفيق باشا عند عودة محمد إليها، وأدرك الولي خطورة حركته وحذره منها، خاصة بعد أن اتضحت صلتها بإيطاليا.

أفتق محمد الإدريسي العثمانيين أنه يعمل لمصلحة الدولة العثمانية، وتم تعيينه برتبة قائمقام؛ فازداد نفوذه وبسط حكمه على تهامة من شمال الحديدة حتى جنوب القنفذة، وعلى بعض جبال السراة، ثم ما بين صيبا وأبها، وحاصر الوالي العثماني في أبها عام ١٣٢٨هـ لعشرة شهور، حتى وصلته النجدة العثمانية بقيادة الشريف الحسين بن علي، فعاد الإدريسي إلى صيبا. ولما بدأت الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا عام ١٣٢٩هـ/١٩١١م، استعان بالإيطاليين، وأمدوه بالسلاح. ثم عقد معاهدة مع بريطانيا عام ١٣٣٣هـ/١٩١٥م، واعترفت بريطانيا بموجبها بسيادته على تهامة من اللحية جنوبا إلى القنفذة شمالا، وتعهدت بحمايته. ولما انتهت الحرب العالمية الأولى تنازلت بريطانيا للإدريسي عن الحديدة، وكان قد سيطر عليها خلال الحرب، فضمها إلى دولته. وأصبح بين خطرين الحجاز واليمن، مما اضطره للتحالف مع عبد العزيز آل سعود سلطان نجد لتأمين مركزه، وذلك عام ١٣٣٩هـ، واستمر في حكم بلاده حتى وفاته عام ١٩٢٣/١٣٤١م.

٤- الأحساء والقطيف :

استغلت السلطات العثمانية استنجاد الإمام عبد الله بن فيصل ضد أخيه سعود، فأرسلت حملة عسكرية تمكنت من الاستيلاء على الأحساء والقطيف عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م، وظلت المنطقة تحت حكم العثمانيين حتى انتزعها منهم الملك عبد العزيز عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م، وتعاقب على حكم المنطقة خلال تلك الفترة كثير من المتصرفين؛ بعضهم من أصل عربي وبعضهم من أصول غير عربية. ولعل من أهم أسباب عزل الولاة واستبدالهم بآخرين عجزهم عن حل المشاكل الأمنية التي كانت تواجه المنطقة، والتي كان يثيرها بعض القبائل لعدة أسباب؛ منها انخفاض مخصصاتهم من الدولة، أو بتحريض بعض رجال السلطات العثمانية في المنطقة لدوافع شخصية.

وكان من أعمال الفئات القبلية المخلة بالأمن مهاجمة المزارع ونهب التمور. وكانت مهاجمة القوافل التجارية البرية من أكثر الأعمال المخلة بالأمن؛ لكنها تقتصر على ذلك؛ بل امتدت إلى مهاجمة السفن التجارية في سواحل الخليج. مما أوقع السلطات العثمانية في حرج مع بريطانيا التي كانت لها مصالح خاصة في المنطقة. وكان كثير ممن تولوا حكم الأحساء والقطيف بين عامي (١٢٨٨-١٣٣١هـ) غير موفقين في إدارتهم لشؤونها. ولما انتهج حزب الاتحاد والترقي سياسة التتريك في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية، ازداد نفور حاضرة تلك المنطقة من الحكم التركي، إلى جانب اختلال الأمن؛ فأصبح السكان يتطلعون إلى الخلاص مما هم فيه، وكان الظروف مهيأة لعبد العزيز آل سعود لاستعادة المنطقة. كما سيتضح لاحقا

٥- نجد:

كانت العلاقة بين الإمام فيصل بن تركي وأميره على جبل شمر عبد الله بن علي بن رشيد، علاقة خاصة تختلف عن العلاقة بين ذلك الإمام وأمرائه الآخرين. واستمرت العلاقة الطيبة بين القادة السعوديين وإمارة الجبل حتى بدأ الخلاف بين الطرفين في عهدي الإمام عبد الله بن فيصل والأمير محمد بن رشيد. وتحول الخلاف إلى صراع انتهى بتغلب الأمير محمد على آخر أئمة الدولة السعودية الثانية، وهو عبد الرحمن الفيصل، وانتهت تلك الدولة على يديه عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م. وبسط محمد بن رشيد نفوذه على نجد، وعامل السكان معاملة حسنة، وساد البلاد أمن لا بأس به، لكن النزاع بين القبائل الرحل ظل قائما، وكان ما يهم الأمير أن تدفع إليه القبائل الزكاة وتعترف بسلطته، وألا تعتدي على القوافل التجارية المشمولة برعايته.

واعترف ابن رشيد بتبعيته للدولة العثمانية، وسعى لتوطيد العلاقات الودية معها أسوة بسلفه. وكانت له علاقات خاصة بالعراق العثمانية قبل توليه إمارة جبل شمر؛ لأنه كان أميراً لقوافل الحج القادمة من العراق والعائدة إليه. وكانت العراق موطناً لكثير من الشمرين الذين غادروا نجد لأسباب متعددة، كما كانت من أهم مصادر الطعام لسكان الجبل وأمرائه. وكانت الدولة العثمانية تسيطر على الحجاز والأحساء والقطيف، ولأهالي نجد مصالح مهمة في تلك البلاد. ثم أن ابن رشيد أصبح حاكم نجد التي تحت حكم الدولة السعودية، التي علاقتها بالدولة العثمانية غير ودية بل عدائية في كثير من الأوقات. وترسخ حكم محمد بن رشيد في نجد حتى وفاته عام ١٣١٥هـ، فخلفه ابن أخيه عبد العزيز بن متعب، الذي وصف بأنه من أعظم رجال زمانه في الفروسية والشجاعة، لكنه لم يتحلى بالدهاء وبعد النظر السياسي كعمه. وكان لأسلوبه الشديد في الحكم الأثر الكبير في نفور النجديين منه، واستعدادهم للوقوف مع خصمه.

المحاضرة الثانية

وتشتمل على موضوعين :

أولاً: عبد الرحمن الفيصل وأسرته بعد نهاية حكمه

ثانياً: الملك عبد العزيز حتى بداية حكمه

أولاً: عبد الرحمن الفيصل وأسرته بعد نهاية حكمه:

أدرك الإمام عبد الرحمن الفيصل ضعف موقفه العسكري أمام الأمير محمد بن رشيد بعد معركة المليداء عام ١٣٠٨ هـ، التي انتصر فيها ابن رشيد على أهل القصيم ومن وقف معهم. ولذلك أخذ الإمام عبد الرحمن ما أمكن أخذه من ممتلكاته وخرج بأسرته إلى المناطق الواقعة بين بيرين والأحساء؛ لبعده عن متناول ابن رشيد، ولوجود فئات من القبائل المتعاطفة معه والمناوئة لخصمه، مثل العجمان وآل مرة. وأدرك الإمام عبد الرحمن صعوبة حياة الصحراء على أسرته؛ فطلب من حاكم البحرين الشيخ عيسى بن خليفة، أن يسكنهم لديه؛ فرحب حاكم البحرين بهم، وذهب الأطفال والنساء إلى البحرين.

ولما التحق إبراهيم بن مهنا أخي حسن بن مهنا أمير بريدة، بالإمام عبد الرحمن بعد معركة المليداء، تشجع الإمام لمواجهة ابن رشيد، الذي انتصر عليهما في معركة حريملاء عام ١٣٠٩ هـ، فتوقف الإمام بعدها عن نشاطه العسكري. وقيل أن الإمام اجتمع بمتصرف الأحساء الذي عرض عليه ولاية الرياض بشرط أن يعترف بسيادة الدولة العثمانية، وأن يدفع لها مبلغاً سنوياً من المال رمزا لتبعية؛ لكنه رفض العرض. وكان من صالح الدولة العثمانية إيجاد المنافسة بين زعماء نجد، وأنه إذا تبع الإمام لها تضمن عدم مهاجمته وأنصاره لمنطقة الأحساء والقطيف الهامة لها، وكذلك عدم استغلال بريطانيا للموقف إذا ما سعت لدعم الإمام. ورفض الإمام لعرض المتصرف يعود لعدم ثقته بالدولة العثمانية، وعدم ثقته بإخلاص العشائر النجدية له بعد انتصارات ابن رشيد المتكررة. وعلى العموم فإن الأنمة السعوديين، بدعا بعبد الله بن سعود، لم يرفضوا السيادة العثمانية على بلادهم، وإن كان اعترافهم بتبعيةهم للعثمانيين قد اختلف عملياً من إمام إلى آخر. ثم إن إقامة الإمام عبد الرحمن في الكويت العثمانية آنذاك، وتسلمه مرتباً منهم دليل على قبوله التبعية لهم.

حاول الإمام عبد الرحمن أن يستقر بالكويت، وذلك لبعدها نسبياً عن خطر محمد بن رشيد، ولأنها أصبحت ملجأ لمن فر من أهل نجد عن بلدانهم، خاصة أهل القصيم، وكانت علاقات النجديين التجارية بالكويت قوية. وبالتالي يستطيع من خلال وجوده في الكويت متابعة أحوال نجد أولاً بأول، وكذلك الاتصال بالمناوئين لابن رشيد. لكن حاكم رفض مجيء الإمام إلى بلاده، واستمر الإمام منتقلاً بين الأحساء وقطر، إلى أن أدركت الدولة العثمانية أن إقامته في الكويت مصلحة لها؛ بحيث تراقبه، وتحول بينه وبين القبائل التي تهاجم منطقة الأحساء والقطيف، ويصعب على متصرفها مطاردتهم، فاستدعاه متصرف الأحساء، وأخبره بالموافقة على إقامته في الكويت، وأن تدفع له الدولة العثمانية مرتباً شهرياً؛ وبالتالي وافق حاكم الكويت؛ فانتقل الإمام إليها مع أسرته. كان حاكم الكويت حينما انتقل إليها عبد الرحمن الفيصل، محمد بن صباح، وإلى جانبه أخيه جراح، أما أخوهما الثالث (مبارك) فكانت له قيادة القوات المحاربة في البلاد. ونتيجة لخلاف محمد وجراح من جهة ومبارك من جهة ثانية، وثب هذا الأخير على أخويه وقتلها، وتولى حكم الكويت عام ١٣١٣ هـ.

ولقد بذل يوسف بن إبراهيم، خال أولاد محمد بن صباح، جهوداً مكثفة للتأثر من مبارك، فاستعدى السلطات العثمانية في العراق، ومحمد بن رشيد، وقاسم بن ثاني، وجميعهم أحجموا عن مساعدته. وكان مجيء عبد العزيز بن رشيد إلى الحكم في نجد عام ١٣١٥ هـ، فرصة ليوسف بن إبراهيم ليحاول إثارة ذلك الحاكم الجديد ضد أمير الكويت، مما دفع مبارك الصباح لعقد معاهدة حماية مع بريطانيا. وحاول مبارك أن يتبع الأسلوب السياسي الذي اشتهر به في كثير من الأحيان، فأوعز إلى النجديين المقيمين في بلاده مغادرتها، وأن يقوموا بنشاط ضد مناطق ابن رشيد، وخرجوا بقيادة عبد الرحمن الفيصل، وهاجموا قبائل في إقليم سدير. وأرسل مبارك في الوقت نفسه، إلى ابن رشيد، يخبره بأن اخرجهم لرغبته في تحسين العلاقات معه، لكن رسولة لابن رشيد لم يصل، إلا بعد أن علم ابن رشيد بأن مباركاً سلاح أولئك الزعماء لمهاجمة نجد، فغضب من مخادعة مبارك له، وبعث إليه بالوعيد والتهديد مع رسول مبارك. فما كان من مبارك إلا أن أرس مندوباً إلى من أوعز إليهم من قبل بمغادرة بلاده، يطلب منهم أن يعودوا إليها. واشتدت حالة التوتر بين ابن رشيد وابن صباح مما أدى إلى معركة الصريف المشهورة.

معركة الصريف (ذي القعدة ١٣١٨ هـ / ١٩٠١ م)

توترت العلاقات بين ابن رشيد ومبارك الصباح، وفي الشهور الأولى من عام ١٣١٨ هـ / ١٩٠١ م، حشد مبارك الحشود في الجهراء استعدادا لمواجهة ابن رشيد، وكذلك قام ابن رشيد بجمع قواته، وتوجه بهم إلى الجهات الشمالية الشرقية من جزيرة العرب، لكن مبارك أذن لحشوده أن تتفرق بعد جمعها، ولما علم ابن رشيد بذلك، انتهز الفرصة وهجم على زعيم قبيلة المنتفق، فغنم منها الكثير وعاد إلى نجد. وظن مبارك أن ضعف قوة ابن رشيد كانت وراء عودته إلى نجد؛ فجمع قواته من جديد، وانضمت إليه فئات من قبائل متعددة بينها المنتفق والعجمان وآل مرة والعوازم ومطير، ثم انطلق صوب نجد ومعه عبد الرحمن الفيصل وابناه عبد العزيز ومحمد، وزعماء من أسرتي الإمارة في بريدة وعنيزة حتى وصلت القوات إلى مكان يسمى الشوكي.

ومن الشوكي سار عبد العزيز على رأس قوة إلى الرياض، أملا في انتزاعها من أمير ابن رشيد، ووصل عبدالعزيز إلى الرياض ودخلها دون صعوبة، وحاصر أمير ابن رشيد، عبد الرحمن بن ضبعان، الذي اعتصم بقصر المصمك. وواصل جيش مبارك الصباح الزحف نحو القصيم، وسار آل مهنا إلى بريدة وآل سليم إلى عنيزة، دون مقاومة في المدينتين. ولما علم ابن رشيد توجه إلى القصيم، وحدثت المعركة بالقرب من بريدة في الصريف، وانتصر ابن رشيد على خصومه (انتصارا عظيما)، وتتبع فلولهم بعد المعركة حتى كاد يبيدهم، وعاد مبارك إلى الكويت مهزوما. أما عبد الرحمن الفيصل فاتجه إلى الرياض، ولما اقترب منها، أرسل إلى ابنه عبد العزيز من أخبره بنتيجة معركة الصريف. فترك الابن الرياض وعاد مع والده إلى الكويت؛ وكذلك فعل آل مهنا في بريدة، وآل سليم في عنيزة، عدوا جميعا إلى الكويت.

ثانيا : الملك عبد العزيز حتى بداية حكمه :

١- المولد والنشأة :

هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود. ولد في الرياض. واختلف الروايات في سنة مولده، لكن الأرجح رواية الزركلي أنه ولد عام ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م استنادا إلى ما ذكره له الأمير عبد الله، أخو الملك عبد العزيز، الذي كان ملما بتاريخ أسرته.

ونشأ عبد العزيز كأبناء جيله من أفراد الأسرة السعودية، وتأدب بالآداب المتوارثة لديها، وكونها أسرة حكم عربية الأصل، وأقامت حكمها على أساس ديني وفق ما نادى به الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وقد أتقن عبد العزيز المهارات التي تناسب مكانة أسرته، مثل الرماية وركوب الخيل وأساليب الكر والفر، وعرف تقاليد أسرته ومارسها، وتعلم أصول العقيدة، التي قام حكم أسرته على أساسها، إلى جانب تعلم مبادئ القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم. وكان ذكيا، صقل مواهبه بحكم الظروف التي أحاطت بطفولته، وبحكم المجالس التي كان يستمع إليها مما أثرى تجاربه، وعرف وعرف الكثير من أمور الدين والتاريخ والأدب، كما تأثر بمشاكل الفرقة بين أفراد أسرته، وأثارها السلبية على البلاد عامة، فتعلم الكثير من الدروس والعبر.

وكانت أول مشاركة له في الحياة السياسية العامة خروجه مع عمه محمد والشيخين عبد الله بن عبد اللطيف وحمد بن فارس؛ للتفاوض مع الأمير محمد بن رشيد عندما حاصر الرياض عام ١٣٠٨ هـ. ورافق والده في أصعب الظروف منذ خروجه من الرياض مروراً بالأحساء وقطر، وحتى استقراره بالكويت، مما زاد رصيده تجاربه القيادية غنى وثراء. وكانت الكويت آخر محطة استقر بها بعيدا عن مسقط رأسه ومركز حكم أسرته، وكان عمره حينما وصل إليها حوالي سبعة عشر عاما. وكانت أول قيادة عسكرية يتولاها هي الفرقة التي دخل بها الرياض، وهي من الجيش الزاحف من الكويت إلى القصيم، استعدادا لمعركة الصريف. ورغم أنه لم يستطع اقتحام قصر المصمك الذي تحصنت فيه حامية ابن رشيد، إلا أن دخوله الرياض بعد غياب حوالي عشر سنوات، فعرف أوضاعها، وأعاد الأمل إلى نفوس مؤيدي آل سعود بعد أن خبا فترة من الزمن.

استعدادته الرياض وبداية حكمه :

أدرك الشاب عبد العزيز بعد تجربته الأولى بدخول الرياض، ظروف المنطقة، وإمكانية إعادة حكم أسرته للبلاد. ولما عاد إلى الكويت، بعد الصريف، أخذ يلح على والده ومبارك الصباح للسماح له بالخروج قائدا لغزوات، وقد وقف أبوه في وجه إلحاحه وحماسه أول الأمر، منتظرا الظروف المناسبة. وربما تأثر الوالد بما حدث على أرض الصريف، بينما تأثر الابن بما دار في الرياض. وكان مبارك الصباح مشغولا بوجود ابن رشيد على مقربة منه،

ويتحين الفرصة للانقضاض عليه؛ لذلك كان يؤيد قيام عبد العزيز بنشاط عسكري، كوسيلة لإشغال ابن رشيد عن ملاحظته. وفي النصف الأول من عام ١٣١٩ هـ، نجح تصميم الملك عبد العزيز وبتأييد من الشيخ مبارك، في إقناع الإمام عبد الرحمن بالموافقة على خروج ابنه من الكويت غازياً، بعد أن حصل على الركائب والأسلحة بدعم من الشيخ مبارك، إلى جانب عدد من أقاربه ومؤيديه، قارب عددهم الأربعين.

ولم يتجه عبد العزيز من الكويت إلى الرياض مباشرة، حتى لا تصل أخباره لابن رشيد ويحتاط لذلك، بل توجه إلى مضارب البادية تمويها وحذراً، خاصة العجمان جهات الأحساء، وانضمت إليه فئات من العجمان، ومن قبائل أخرى، مثل سبيع والسهول وآل مرة، حتى تجاوز عددهم ألف مقاتل. وبدأ يغير على جماعات من قبائل معينة، ولفت إلى حركته الانتظار. وأدرك عبد العزيز الرشيد خطورته، فبذل جهوده لدى العثمانيين، الذين كانوا غير راضين عن آل سعود، ولا عن مبارك الصباح الذي تحالف مع بريطانيا.

وسعت السلطات العثمانية في الأحساء إلى التضييق على الذين وقفوا إلى جانب الملك عبد العزيز، ومنعتهم من دخول بلدان الأحساء والقطيف والتزود بالأطعمة والمؤن منها، مما دفع رجال القبائل إلى التخلي عنه مراعاة لمصالحهم الخاصة، حتى لم يبق معه إلا الذين رافقوه من الكويت؛ فتوجه بهم إلى يبرين بين قطر والربع الخالي ليرسم خطته المستقبلية. وسعى والده في تلك الأثناء لإقناعه بالعودة إلى الكويت، لكن عبد العزيز صمم على مواصلة جهوده، ولكن بطريق آخر تمثل بضرورة القيام بعمل مفاجئ. وانطلق عبد العزيز بمن معه من يبرين إلى الرياض يوم ٢١ رمضان ١٣١٩ هـ، وفي منتصف الطريق (أبو جفان، انظر الخريطة رقم ٢ في الكتاب المقرر ص ٣٦٦) أخبر رفاقه بأن هدفه الرياض، وفي ٥ شوال كانوا في ضواحي الرياض. ووضع عبد العزيز خطة محكمة لدخولها والاستيلاء عليها.

وقسم رجاله إلى ثلاث مجموعات: واحدة ترابط عند الإبل حتى الصباح، فإن حل الصباح ولم يأتها منه خبر، عليهم النجاة بأنفسهم. والثانية بقيادة أخيه محمد تكمين في إحدى مزارع البلدة، حتى تصلها أوامره. والثالثة بقيادته تدخل البلدة. ونجح عبد العزيز ومجموعته بدخول الرياض حتى وصلوا بيتاً مجاوراً لبيت عامل ابن رشيد، عجلان بن محمد، واستدعى المجموعة الثانية، وخلصه الأمر انتظار الجميع خروج عجلان من قصر المصمك في الصباح، وانقضوا عليه حتى قتل بيد عبد الله بن جلوي، واضطر باقي أفراد الحامية إلى الاستسلام، ثم نودي في البلدة أن الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

قيام الدولة السعودية الثالثة (٥ شوال ١٣١٩ هـ / ١٥ يناير ١٩٠٢ م):

بدأ الملك عبد العزيز خطوته الأولى في استعادة الحكم السعودي بدخوله الرياض، وبدأت الدولة السعودية الثالثة يوم ٥ شوال ١٣١٩ هـ / ١٥ يناير ١٩٠٢ م؛ واندفع سكان الرياض يبيعون حاكمهم الجديد. وكانت عملية استعادة الرياض جريئة ومحكمة، وتعتبر اللبنة الأولى لما قام بعدها من بناء شامخ تمثل في توحيد المناطق التي تكونت منها المملكة العربية السعودية المترامية الأطراف. وأدرك الملك عبد العزيز قوة الأمير عبد العزيز بن رشيد، ولم يغتر بفتوته ونشوة انتصار، وبدأ يعد العدة لخطر محتمل، وشرع ببناء أسوار مدينة الرياض التي هدمها ابن رشيد، ولم تمر خمسة أسابيع إلا والرياض محصنة كل التحصين، كما أرسل مع خبر دخوله الرياض إلى والده ومبارك الصباح، بطلب نجدة بقيادة أخيه سعد، وقد وصلت تلك النجدة بالسرعة المأمولة.

المحاضرة الثالثة

توحيد نجد عدا جبل شمر

تمهيد:

اتبع عبد العزيز بن رشيد بعد انتصاره في معركة الصريف، سياسة الشدة والقوة مع خصومه من النجديين لتضامنهم مع مبارك الصباح؛ مما زاد كرههم له وتطلعهم للخلاص من حكمه. وكان ابن رشيد قد ذهب إلى الشمال الشرقي من جزيرة العرب على الاستيلاء على الكويت، وعلم باستيلاء خصمه الجديد، عبد العزيز آل سعود، على الرياض وهو في حفر الباطن. وكانت ردة فعل ابن رشيد كما ترجح بعض المصادر؛ أنه استشار كبار قومه، الذين ملوا غيابهم عن بلادهم، وخافوا أن يتوجه بهم صوب الرياض؛ فأشاروا عليه بالعودة إلى حائل لتجهيز جيش قادر على الحصار والمطالبة، وهذا ما فعل. وقد أظهر عدم المبالاة في مسألة الرياض، وظل في حفر الباطن أربعة شهور، يتصرف على

اعتبار أن قضية الكويت أصل، وقضية الرياض فرع، ربما متأثر بما حدث في الصريف واضطرار عبد العزيز آل سعود للتسحاب من الرياض على إثرها. وخلاصة موقف ابن رشيد أنه لم يتخذ الإجراء المناسب في الوقت المناسب، مما أتاح الفرصة لعبد العزيز آل سعود أن يحصن الرياض، وأن يستعد لتوسيع دائرة نفوذه في بلدان نجد الأخرى.

توحيد جنوبي نجد :

اطمان الملك عبد العزيز على وضعه في الرياض، ثم عزم على التحرك خارجها، وكان أمامه ميدانان للحركة: جنوب الرياض، أو الجهات الواقعة شمالها وغربها، وفضل أن يبدأ حركته بالجهات الجنوبية لأسباب متعددة؛ منها: أنها أبعد جغرافيا عن قاعدة حكم ابن رشيد، وبالتالي أقل إثارة لخصمه القوي آنذاك، كما أن قوة الحكم الرشيدي أقل في تلك المناطق. إضافة إلى أن معظم قادة جنوبي نجد وسكانه كانت لهم مواقف مشهودة ضد القوات العثمانية، والمتحركين باسمها، وكانت بلدانهم مأوى لكثير من الذين رفضوا الخضوع لها؛ خاصة من آل سعود وآل الشيخ. واعتقد ابن سعود أنه إذا كسب ولاء سكان المناطق الجنوبية، يستطيع التحرك شمالا وغربا وظهره بأمان، واستجاب له سكان جنوبي نجد، ودخلت تحت حكمه الخرج والأفلاج والحريق وحوطة بني تميم، وامتد نفوذه من الرياض إلى وادي الدواسر.

المجابهة مع ابن رشيد في الدلم (ربيع الأول ١٣٢٠هـ / يونيو ١٩٠٢م):

نجح الملك عبد العزيز آل سعود في جنوبي نجد نهاية عام ١٣١٩ هـ وبداية عام ١٣٢٠ هـ، ثم اتجه إلى غرب الرياض؛ خاصة صوب عالية نجد؛ وتركز تحركه على بعض فئات البادية من القبائل الرحل، ولم يهاجم البلدان والقرى، حتى لا يثير خصمه، كما أن نجاحه في هذا الأمر ينتج عنه حصوله على الغنائم التي هو في أمس الحاجة إليها. وكان النصر حليفه. وقد عاد والده عبد الرحمن الفيصل من الكويت إلى الرياض في تلك الأثناء؛ فاجتمع شمل الأسرة في مقر الحكم السعودي.

أما ابن رشيد فقد خرج على رأس قواته من حائل في شهر ربيع الأول ١٣٢٠ هـ، واستنفر أتباعه في القصيم والوشم وسدير والمحمل، حتى وصل الجميع إلى رغبة (إحدى بلدان المحمل) التي أقام فيها شهرين، ثم انتقل إلى الحسي. وقد حل وباء في بعض البلدان النجدية ذلك العام. وأمر سعد الحازمي أن يستنهض القبائل المجاورة للاحساء؛ لكن الحازمي فشل في مسعاه؛ لأن الملك عبد العزيز كان قد سبقه إليهم واستقطبهم إليه. وكان هدف ابن رشيد تطويق الرياض. لكنه انتقل من الحسي إلى الحفر تمويها على خصمه.

وسعى الملك عبد العزيز لاستدراج خصمه إلى ساحة بعيدة عن الرياض، التي غادرها بعد أن ترك فيها جيشا قادرا على الدفاع عنها بقيادة والده. وتوجه إلى حوطة بني تميم يستنهض أهلها، وبعث أخاه سعد إلى الحريق، وجعل عبد الله بن جلوي يربط بينهما، ولما علم ابن رشيد بخروجه، سارع إلى الرياض حتى وصل ضواحيها، ظانا أن خلافا قد وقع بين الابن وأبيه، وعندما خاب ظنه توجه بقواته التي تقرب من أربعة آلاف مقاتل إلى الخرج، لمنازلة ابن سعود والقضاء عليه، ووصل نعجان، ثم بدأ يغير على الدلم. ثم وصلت قوات ابن سعود التي تقرب من الألفين إلى الدلم للدفاع عنها، وحصلت المواجهة بين الفريقين، واضطر ابن رشيد للتسحاب من الدلم إلى مركزه في نعجان، فتابعه ابن سعود، ووقعت بينهما اشتباكات غير حاسمة، لكنها أظهرت لابن رشيد أن خصمه قادر على مواجهته وإلحاق الضرر به. وانسحب ابن رشيد من إقليم الخرج.

واعتبرت المواجهة الأولى في الدلم وما حولها، نصرا لابن سعود قلّت خسائر ابن رشيد أو كثرّت. وقد حدثت المواجهة في ربيع الأول ١٣٢٠هـ / يونيو ١٩٠٢م.

توحيد الوشم وسدير والمحمل والشعيب:

انسحب ابن رشيد من الخرج إلى أطراف بريدة، ثم توجه إلى شمال شرقي الجزيرة، واتخذ من حفر الباطن مركزا له. ولما استشعر مبارك الصباح بخطر ابن رشيد على إمارته، استنجد بالملك عبد العزيز، الذي أجاب النجدة، واتجه إلى الكويت على رأس آلاف من المحاربين، ولما وصل الكويت وجد حاكمها قد أعد جيشا كبيرا بقيادة ابنه جابر، وانطلق الجميع صوب حفر الباطن لمهاجمة ابن رشيد. وكان ابن رشيد قد غادر حفر الباطن إلى الرياض مستغلا غياب عبد العزيز بقواته عنها، بعد أن موّه على خصومه بأنه ذاهب إلى حائل، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء على الرياض، وانتهت غارته بتقطيع بعض النخيل خارج أسوارها.

وشجعت انتصارات الملك عبد العزيز في الرياض وما يليها جنوبا، المؤيدين للحكم السعودي شمال الرياض للتحرك ضد الحكم الرشيدي، مما هيا الملك للعمل على توحيد البلدان الشمالية. وكان أهل شقراء في طليعة المؤيدين، فقد دفعهم

تصرف عامل ابن شيد، عبد الله الصويغ، على التخلص منه؛ فثاروا عليه وأخرجوه من بلدتهم، وبعثوا إلى الرياض يعلنون الولاء ويطلبون سرية تقف معهم ضد أي هجوم محتمل؛ فتوجهت إليهم سرية بقيادة مساعد بن سويلم، الذي هاجم ثرمداء وقتل أميرها وكذلك عبد الله الصويغ، ثم عاد إلى شقراء. ثم حضر الملك عبد العزيز إلى شقراء وأخذ يرسل السرايا إلى البلدان المجاورة، كانت إحداها إلى ثرمداء بقيادة عبد الله بن جلوي، تمكنت من دخولها بعد هرب أفراد حاميتها، وثانية إلى روضة سدير بقيادة أحمد السديري، ونجحت في إخراج حامية ابن رشيد منها.

ودخلت بقية بلدان سدير تحت الحكم السعودي سوى المجمع، التي بقيت خارج هذا الحكم إلى ما بعد مقتل الأمير عبد العزيز بن رشيد بقليل. ولما اطمأن الملك على استقرار الأوضاع لصالحه في الوشم وسدير، رجع إلى الرياض في ربيع الأول عام ١٣٢١ هـ. وكان إقليما الشيعي والمحمل دخلا طاعته دون مقاومة. خلاصة الأمر كانت ميول سكان تلك الأقاليم النجدية الأربعة مع الملك، وأن أعماله وجهت ضد الحاميات الرشيدية.

توحيد القصيم :

تمتعت الأقاليم نجدية بأهمية خاصة لكل منها، ولإقليم القصيم أهمية من عدة جوانب؛ فمساحته واسعة، ومياهه غزيرة، وأراضيه زراعية، وسكانه كثيرون نسبيا ونشطون زراعيًا وتجاريًا. وكان لموقعه أهمية كبيرة في تاريخ الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. وكان القصيم البوابة التي دخلت منها قوات محمد علي باشا والي مصر، للقضاء على الدولة السعودية الأولى. وأدرك الامام فيصل بن تركي أسوة بأسلافه أهمية الإقليم. وكانت هزيمة أهل القصيم أمام محمد بن رشيد في المليداء عام ١٣٠٨ هـ، من أهم العوامل في توطيد حكمه في نجد، وفي خروج الامام عبد الرحمن الفيصل من الرياض.

ولما أخذ الملك عبد العزيز يعمل على توحيد البلاد، كان منات من أهل القصيم قد تغربوا في العراق والشام ومصر عملا في التجارة، أو هروبا من الخضوع للحكم الرشيدي. كما كان في الكويت أكابر أسرتي الإمارة في بريدة وعنيزة: آل مهنا وآل سليم، الذين فروا من نجد خوفا من بطش آل رشيد بهم. وكانوا يتوقون إلى العودة إلى بلادهم وتسلم مقاليد أمورهم. ولقد أدرك كل من الملك عبد العزيز والأمير عبد العزيز بن رشيد أن القصيم سيكون ميدان الصراع الحاسم بينهما؛ فسعى الأول لانتزاعه من الثاني، وسعى الثاني للاحتفاظ به. وقد سعى الملك عبد العزيز لحث زعماء آل مهنا وآل سليم في الكويت للحضور إليه، ليعملوا جميعا على تخليص القصيم من حكم ابن رشيد، ولبوا نداء الملك، ولحقوا به وهو في طريقه إلى القصيم.

ووصل الجميع إلى الزلفي في أول رمضان ١٣٢١ هـ، لكن القحط في تلك السنة، وعدم تعاون كبار عنيزة الخاضعين لابن رشيد مع الملك عبد العزيز حال بينهم وبين مواصلة المسير إلى القصيم، وعاد الملك إلى الرياض، وتوجه آل مهنا وآل سليم إلى شقراء. أما ابن رشيد فقد أقام في بريدة لترتيب أمور إقليم القصيم، وتعزيز دفاعاته ضد أي هجوم محتمل، فعزز سراياه في بريدة وعنيزة والسر؛ ولما اطمأن إلى ما اتخذته من إجراءات، إلى جانب عودة عبد العزيز آل سعود إلى الرياض، توجه إلى حدود العراق في ١٠ شوال ١٣٢١ هـ؛ وذلك للتزود بالأطعمة، واستنهاض أبناء قبيلته، وطلب مساعدة السلطات العثمانية. ولما علم الملك عبد العزيز وأتباعه من أهل القصيم بمغادرة ابن رشيد إلى العراق، توجهوا إلى القصيم، وفاجأ حسين بن جراد ومن معه، في فيضة السر، وغنم ما كان معهم، ثم عادوا جميعا إلى الرياض، وذلك ٢٨ ذي القعدة ١٣٢١ هـ.

وفي العشر الأواخر من ذي الحجة ١٣٢١ هـ، خرج الملك عبد العزيز من الرياض مستنهضا أتباعه للغزو، وانضم إليه في الوشم آل مهنا وآل سليم، وأظهر تمويها أنه يريد الكويت، ثم أسرع نحو القصيم ونزل خارج أسوار عنيزة ليلة ٥ محرم ١٣٢٢ هـ، وأمر آل مهنا وآل سليم وأتباعهم بدخولها، فاستولوا عليها بسهولة، وقتلوا رئيس السرية الرشيدية فيها، فهيد بن سبهان، وحاصروا حامية ابن رشيد في قصر الإمارة، حتى استسلمت في اليوم التالي (٥ محرم) بمساعدة سرية قادها عبد الله بن جلوي. وكان صالح اليعحي أمير ابن رشيد على عنيزة قد فشل في إقناع ماجد الحمود بن رشيد للدفاع عن البلدة، وأمر ماجد أتباعه بالرحيل، وفي تلك الأثناء فاجأهم الملك عبد العزيز بهجومه عليهم، وهرب من بقي حيا إلى بريدة وحائل.

وبذلك تمت السيطرة على عنيزة صباح يوم ٥ محرم ١٣٢٢ هـ، وعادت إمارة عنيزة إلى آل سليم تحكم الملك عبد العزيز، وأصبح أميرها عبد العزيز بن عبد الله، وإلى جانبه صالح الزامل قائد لغزوها. وشجع ما حدث في عنيزة كبار أهل بريدة على إيضاح موقفهم المؤيد للملك عبد العزيز، فبعد يومين من دخوله عنيزة قدم إليه وفد منهم يبدون وقوفهم معه؛ فسير الملك آل مهنا إليها، واستقبلهم أهلها بحماس، ثم توجه إليها الملك بقواته، فبايعه سكانها، وحاصر عبد الرحمن بن ضبعان، الذي تحصن مع حاميته بقصرها المنيع، ودام الحصار شهرين ونصف، حتى اضطر قائدهم

للتفاوض مع الملك لإنهاء الحصار والتسليم، وتوصل معه إلى اتفاق يسلم بموجبه القصر للملك، ويخرج المحاصرون أمنين بأسلحتهم الشخصية، مع تأمين ركائب تنقلهم إلى بلادهم، وهذا ما تم. وكان الملك حريصا على إنهاء الحصار قبل عودة ابن رشيد إلى بريدة. وهكذا عادت إمارة بريدة إلى آل مهنا تحت حكم الملك عبد العزيز، وأصبح صالح الحسن المهنا أميرا لها. وبذلك أصبح القصيم كله تحت الحكم السعودي.

المحاضرة الرابعة

القصيم بين توحيدهِ وتثبيت الحكم فيه

أولاً: قبل معركة روضة مهنا

أ- معركة البكيرية :

علم ابن رشيد بدخول الملك عبد العزيز عنيزة وبريدة، وهو لا يزال قرب السماوة في العراق، وقد أثار موقف أهل القصيم غضبه؛ فحجز ما وجده من إبل العقيلات القصيمين في شمال الجزيرة، وحمل عليها قسما كبيرا مما حصل عليه من مؤن وأسلحة من العراق إلى نجد. واستعمل الهدايا لإغراء السلطات العثمانية في العراق، وادعى أن ابن سعود ومبارك الصباح قد تحالفا مع بريطانيا للسيطرة على جزيرة العرب. وكانت الدول العثمانية تعلم باتفاق ابن الصباح مع بريطانيا، أما الملك عبد العزيز فلا. لكن نجاح الملك في نجد عامة والقصيم خاصة، جعل السلطات العثمانية تحسب حساب ذلك النجاح، وربما ساهم ذلك بإجابتها لطلبات ابن رشيد وتزويده بالأسلحة والقوات النظامية العثمانية، وكانت تدرك أن توحيد نجد تحت حكم آل سعود قد يؤدي إلى فتح الطريق لتوحيد الأحساء والقطيف الواقعة آنذاك تحت الحكم العثماني.

وسار ابن رشيد من الحدود العراقية باتجاه القصيم، ومعه القوة النظامية العثمانية، وأعداد كبيرة من مؤيديه أغلبهم من قبيلة شمر. ولما دخل القصيم انضم إليه ماجد الحمود الرشيد ومن خرج معه من حائل، ووصل الجميع إلى بلدة قصيباء (٧٤ كم شمال غرب بريدة). وزحف ابن رشيد بقواته صوب بريدة، حتى وصل نهاية الأمر إلى الشحيحة المجاورة للبكيرية. (انظر خط سير ابن رشيد خريطة رقم ٦ ص ٣٧١ من الكتاب المقرر)

المعركة :

علم الملك عبد العزيز بحجم قوات ابن رشيد وتابع تحركاته، فاستنهض أتباعه، ثم خرج من بريدة ونزل البُصر، ثم إلى البكيرية، حيث أصبح في مواجهة خصمه، وذلك في شهر ربيع الثاني عام ١٣٢٢هـ/ يوليو ١٩٠٤م.

وبدأ القتال بين الطرفين بعد وصول الملك عبد العزيز إلى البكيرية، وركز ابن رشيد وأتباعه هجومهم على الجهة التي فيها الملك، ومن معه من أهل العارض وجنوب القصيم، الذين لم يأت عصر ذلك اليوم إلا وقد أنهكوا خاصة من نيران المدافع، وأصابت شظية اليد اليسرى للملك عبد العزيز، فبدأوا ينهزمون؛ واقتفى أثرهم ابن رشيد. وكان أهل القصيم قد أحرزوا تقدما في الجهة التي يقاتلون فيها، وهزموا جيش ابن رشيد، ولم يعلموا بهزيمة الملك ومن معه، لدرجة أنهم اعتقدوا أن ابن سعود لم ينهزم وإنما عمل التفافا حولهم. وبقي الأمر كذلك حتى دخل الليل.

وكانت خسائر الطرفين المتحاربين كبيرة، وكثر القتلى في الجبهة التي كان يقاتل فيها الملك عبد العزيز؛ لأن ابن رشيد ركز هجومها عليها، أما القتلى من جيش ابن رشيد فكان أكثرهم من القوات النظامية، الذين ربما شعروا أنهم تركوا في الميدان وحدهم، مما أثر في معنوياتهم لاحقا، بعد هرب فرسان ابن رشيد أمام بنادق أهل القصيم. وعاد أهل القصيم إلى البكيرية ومعهم الغنائم من أموال وأسلحة ومدافع، وبعض الأسرى من الجنود النظاميين، وخافوا أن يعلم ابن رشيد أنهم وحدهم في البكيرية؛ فغادروها إلى بلدانهم بما استطاعوا حمله من الغنائم. ولما علم ابن رشيد عاد مسرعا إلى البكيرية، فأخذ الأسرى وما بقي من الغنائم، وتوجه إلى بلدة الخبراء فهاجمها بالمدافع، وقد صمد أهلها أمام قوات ابن رشيد أياما، مما جعل القوات النظامية تدرك صعوبة الاستيلاء على بلدان القصيم بعكس ما قاله لهم ابن رشيد.

أما الملك عبد العزيز فقد اتجه بمن معه جنوباً حتى وصل بلدة المذنب، وتفرق بقية جيش، وعاد بعضهم إلى عنيزة يحملون خبر الهزيمة. وقبل انتصاف الليل علم أمير عنيزة عبد العزيز بن سليم، عن طريق رسالة وصلتة من أمير غزو عنيزة صالح الزامل، بخبر انتصار أهل القصيم على ابن رشيد. فبعث أمير عنيزة للملك عبد العزيز بالخبر ويطلب منه العودة إلى عنيزة كي يعيد الكرة على ابن رشيد. ولما اطمأن الملك إلى صحة الأخبار التي وصلتته عاد إلى عنيزة. وحاول الملك عبد العزيز بعد وصوله عنيزة، أن يسبق ابن رشيد إلى البكيرية؛ فبعث سرية إليها، ولما اكتشفت أن ابن رشيد قد سبقها، عادت إلى عنيزة. واستنفر الملك أتباعه لمهاجمة البكيرية، وأرسل ابن رشيد قسماً من خيالاته للدفاع عنها، فاشتبكوا مع جيش الملك عبد العزيز وانهزموا، ثم اقتفى الملك وأتباعه أثر ابن رشيد الذي اتجه إلى الشبيحية ثم الخبراء، ثم إلى الشنانة.

ب- معركة الشنانة :

عسكر ابن رشيد في الشنانة، بينما اتخذ الملك عبد العزيز الرس مركزاً له. واستمر الطرفان على ذلك حوالي الشهرين، مع حدوث مناوشات خفيفة، حتى مل الطرفان، خاصة القبائل البدوية التي تحبذ الحرب الخاطفة السريعة. وأرسل الملك عبد العزيز بفهد الرشودي أحد وجهاء بريدة، إلى ابن رشيد يعرض عليه الهدنة، لكن ابن رشيد رفض العرض وسخر منه، وهدد وتوعد بهزيمة خصومه، وأدت سخريته إلى حماس أتباع الملك ضد ابن رشيد. وكان زعماء القبائل الذين مع ابن رشيد، قد أبلغوه معاناتهم من طول الانتظار، وأثر ذلك علي خيلهم ومواشيهم، وأنه لابد من مناجزة ابن سعود أو الرحيل؛ فاختار الرحيل، وشدت القبائل رحالها قبله. ولما بدأ ابن رشيد وجيشه بالتحرك فاجأهم الملك عبد العزيز وأتباعه بالهجوم، وعاد الملك إلى مركزه في الرس.

وفي اليوم التالي توجه ابن رشيد إلى قصر ابن عقيل، وضربه بنيران المدافع. ولما علم ابن سعود، انطلق بأتباعه إلى القصر ودخلوه ليلاً. وبعد أن أدرك ابن رشيد عدم قدرته على احتلال القصر، أراد الرحيل، ولما انتهى من تحميل معداته، هاجمه ابن سعود. ولما اشتد القتال بينهما، انهزمت القوات النظامية التي مع ابن الرشيد، ثم تبعها باقي جيشه، مخلفين وراءهم المدافع والأسلحة وصناديق من الذهب.

وهكذا انتهت المعركة المعروفة باسم الشنانة، وإن لم تدر رحاها على أرض تلك البلدة، وذلك في ١٨ رجب ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤-٩م. وكانت معركة ضارية، ووصف البعض نتيجتها بأنها أقرب ما يكون إلى الاتسحاب. وتكمن أهمية المعركة في نتائجها وآثارها، التي من أبرزها: حصول ابن سعود وأتباعه على غنائم كثيرة، وتفكك جبهة خصمه؛ إذ حدث خلاف بعد المعركة بين ابن رشيد وحلفائه العثمانيين، ولم يخوضوا معه معركة ضد ابن سعود بعد الشنانة.

ج- القصيم بين معركتي الشنانة وروضة مهنا :

وصل ابن رشيد بعد خروجه منهزماً من الشنانة إلى النبهانية، ثم اتجه شمالاً حتى وصل إلى الكهفة. وكانت حالة الجنود النظاميين سيئة جداً، وبلغ عدد الذين وصلوا منهم إلى الكهفة (٧٠٠) رجل. وأقام ابن رشيد ثلاثة شهور في الكهفة دون أن يقوم بعمل عسكري يذكر، سوى بعض الغارات على بعض القبائل هنا وهناك، وواصل جهوده للحصول على معونة عثمانية جديدة.

وكان من نتائج معركة الشنانة أن بدأت الاتصالات بين العثمانيين والملك عبد العزيز، واعتبر انتصاره في الشنانة انتصاراً جزئياً على الدولة العثمانية التي ساندت ابن رشيد. وربما بادر ابن سعود للاتصال بوالي البصرة العثماني ليعرب من خلاله عن حسن نواياه نحو الدولة العثمانية، حتى يتجنب إرسال قوات عثمانية جديدة تقاتل ضده مع ابن رشيد. وجاء اتصاله بعد الشنانة في توقيت مناسب، وهو حالة انتصار وكانت الدولة العثمانية راغبة بمعرفة وجهة نظر الملك عبد العزيز، خصوصاً بعد أن أدركت عدم تجاوب النجديين بصفة عامة، مع حليفها ابن رشيد. وحتى لا يبدو مركزها ضعيفاً أمام ابن سعود، بعثت إلى نجد قوة من العراق بقيادة المشير أحمد فيضي، وقوة أخرى من المدينة بقيادة الفريق صدقي باشا. وقابل ابن رشيد المشير، لكنه عجز عن إقناعه بوجهة نظره، فعاد إلى معسكره في الكهفة متوتراً. ووصل الجميع إلى القصيم بقيادة المشير أحمد فيضي. ونتج عن الاتصال بين العثمانيين والملك عبد العزيز، أن توجه الإمام عبد الرحمن الفيصل إلى العراق عبر الكويت، حيث انضم إليه مبارك الصباح، والتقى قرب الزبير مع والي البصرة لبحث الأوضاع في نجد. وعرض عليه والي أن تكون الأقاليم الواقعة جنوب القصيم تابعة للملك عبد العزيز، والأقاليم الواقعة شمال القصيم تابعة لابن رشيد، وأن يكون القصيم فاصلاً بينهما تحت سيادة الدولة العثمانية، التي ستجعل فيه حاميتين عسكريتين إحداهما في بريدة والأخرى في عنيزة. ولم يصرح الإمام بموقفه من العرض، ووعد بعرضه على ابنه وأهل نجد لدراسته. ولذلك أخبره والي أن المباحثات لاحقاً ستكون بين الإمام والمشير أحمد فيضي، الذي كان في طريقه حينذاك إلى القصيم.

ولما وصل المشير إلى القصيم؛ أرسل إلى الملك عبد العزيز يخبره بأنه لم يحضر إلى نجد للحرب، وإنما للصلح وتحقيق الأمن. وبعث المشير مندوبا إلى أمير بريدة، وآخر إلى أمير عنيزة؛ لإرسال مندوبين إليه للتفاوض. ووصل المندوبون واجتمع المشير بهم اجتماعا تمهيديا. ولما نزل المشير قرب بريدة في الأول من صفر ١٣٢٣ هـ، خرج إليه صالح الحسن المهنا، وتفاوض معه، وفيما يبدو أن أمير بريدة استعد للتبعية للدولة العثمانية مستقلا عن كل من ابن سعود وابن رشيد. ولما وصل المشير إلى عنيزة بعد ثلاثة أيام، وتفاوض مع أميرها عبد العزيز بن عبد الله بن سليم، الذي أظهر للمشير طاعته للدولة العثمانية، لكن لابد من الرجوع لابن سعود لتقرير شؤون البلاد.

ولما وصل المشير إلى عنيزة بعث إلى عبد العزيز بن سعود ليحضر الإمام عبد الرحمن إليه للتفاوض، فحضر الإمام وتباحث مع المشير، الذي أعاد ما سبق أن عرضه والي البصرة، فرفض الإمام العرض؛ ثم اقترح المشير، أن يكون في كل من بريدة وعنيزة مركز عثماني مؤقت فيه عدد من الجنود يرفعون العلم العثماني، ربما ليظهر أمام دولته أنه حقق شيئا من النجاح. وقبل الإمام العرض ربما لاعتقاده أن هذا الوضع لن يستمر. وفي تلك الأثناء صدر أمرا للمشير بمغادرة نجد إلى اليمن لمواجهة الثورة هناك. ولما غادر القصيم تولى الفريق صدقي استكمال متابعة الاتفاق، وانتقل الفريق صدقي إلى الشبيحة، وتمركز فيها دون أن يقوم بأي نشاط عسكري. وتم تنفيذ الاتفاق ودخلت إلى كل من بريدة وعنيزة مفرزة صغيرة من الجنود العثمانيين، ورفع العلم العثماني فيهما.

المحاضرة الخامسة

تابع: القصيم بين توحيدهِ وتثبيت الحكم فيه

ثانيا: القصيم خلال معركة روضة مهنا وما بعدها

: معركة روضة مهنا

انقسم زعماء القصيم تجاه اتفاق الإمام مع العثمانيين إلى ثلاثة أقسام: قسم يرى التمسك بالقيادة السعودية، وهم أمراء عنيزة وأهلها وكثير من أهل بريدة والبلدان التابعة لها. وقسم يرى التبعية المباشرة للدولة العثمانية والاستقلال عن قيادة آل سعود، ومثل هذا القسم أمراء بريدة وقليل من أهلها. وقسم ثالث يرى الانضمام إلى ابن رشيد والتعاون معه، ومثل هذا القسم بعض زعماء الرس، خاصة الذين فقدوا إمارة بلدتهم، ورغبوا بالعودة إليها.

وغادر الملك عبد العزيز القصيم في ذلك الوقت لنجدة حاكم قطر، قاسم بن ثاني، وليظهر لأمرأ بريدة ومن يرى رأيهم، عجزهم عن مواجهة خطر ابن رشيد بدون الملك عبد العزيز. وكان ابن رشيد مستاء من الاتفاق الي تم بين العثمانيين وابن سعود، وأخذ يستعيد نشاطه العسكري في القصيم منفردا، فبعث سرية إلى الرس، ونجحت في دخولها. وبدأت مناوشات بين أمير بريدة وجماعته وابن رشيد. وبالتالي أدرك أمير بريدة خطأ موقفه؛ وتوسط أمير عنيزة له عن الملك عبد العزيز، فعفا عما بدر من أمير بريدة. وحضر الملك بنفسه إلى عنيزة في ١٠ شعبان ١٣٢٣ هـ، وبدأت المناوشات بين ابن رشيد ومن معه، وبين ابن سعود ومن معه، دون أن تحدث مواجهة حاسمة، وعاد ابن سعود إلى الرياض. وفي ٢٥ ذو الحجة خرج الملك عبد العزيز بأتباعه غازيا، ونزل الأسياح. ولاحق ابن رشيد الذي توجه إلى إقليم سدير. ولما وصل إلى الزلفي بلغه أن خصمه امتار وعاد شمالا. وتابع الملك سيره حتى وصل إلى مجمع البطنان غرب الدهناء. وهاجم بعض القبائل المؤيدة لخصمه.

وفي ١٦ صفر ١٣٢٤ / ١٠-٤-١٩٠٦ م، علم الملك عبد العزيز بنزول ابن رشيد على بعد ساعتين منه في روضة مهنا غربي رمال الثويرات؛ فأمر أتباعه المكونين من (١٦٠٠) مقاتل، بالتوجه لمهاجمة خصمه، الذي كان جيشه يزيد على هؤلاء بمنتي مقاتل تقريبا. وبدأوا هجومهم ليلة ١٧ صفر، وحملت المعركة تحت جنح الظلام، فتقهقر المهاجمون الذين أخذتهم المفاجأة نوعا ما. وأثناء تجوال ابن رشيد بين أتباعه لتحريضهم على القتال، عرفه اتباع ابن سعود وقتلوه، وانهزم أتباعه، وبذلك انتهت المعركة، وأخذ اتباع الملك عبد العزيز خاتم ابن رشيد وسيفه إلى الملك. وبمقتل عبد العزيز بن رشيد أصبح مركز ابن سعود أكثر قوة وثباتا.

بعد انتصار ابن سعود في روضة مهنا هاجم فئات من قبيلة حرب التي كانت موالية لابن رشيد ، وكسب منها بعض الغنائم. ثم عادت بلدة الرس الى طاعته، ولما كانت بعض مواقف أمير بريدة صالح الحسن المهنا، تتعارض مع رؤية الملك عبد العزيز رغم تبعيته الرسمية له. واقتنع الملك بضرورة ابعادة عن الإمارة، وكان مقتل ابن رشيد من أكبر العوامل التي هيأت للملك عزله. وفي ٢ ربيع الثاني ١٣٢٤ هـ، وجد الملك الوسيلة المناسبة لتحقيق هدفه، ودخل قصر امارة بريدة حيث كان يوجد الامير وبعض اخوانه، ودعا بعض اتباعه لدخول القصر على دفعات؛ مظهرا أنه سيجبرهم لذهابهم لجمع الزكاة من القبائل. وكان قد رتب معهم ان يغلقوا ابواب القصر اذا اكتمل دخولهم، ويسارعوا بالقبض على صالح وإخوانه، وتم ذلك دون اراقة الدماء، وبعثهم ليسجنوا في الرياض. وعين محمد بن عبد الله أبا الخيل اميرا في بريدة. وكان الامير متعب بن عبد العزيز ال الرشيد قد خلف اياه في الإمارة، وحاول ان يحسن علاقته بابن سعود؛ فبادر الى اطلاق سراح من كانوا مسجونين في حائل من آل سعود. ثم اتفق معه على ان تكون المناطق الواقعة شمال القصيم تحت امارته، وما عداها من اقاليم نجد تحت حكم ابن سعود.

رحيل القوات العثمانية عن القصيم :

أدرك قادة الدولة العثمانية ان الفريق صدقي باشا لم يحقق هدفهم في القصيم؛ ولذلك بعثوا من المدينة المنورة قائدا اخر اسمة سامي الفاروقي؛ فمر هذا القائد بالأمير متعب بن رشيد، واتفق معه على ان يكون القصيم اقليما تابعا للدولة العثمانية. واجتمع سامي الفاروقي بالملك عبد العزيز في البكيرية؛ ورفض ابن سعود ما وافق عليه ابن رشيد، واحتدم النقاش بينهما، فغضب ابن سعود وغادر الاجتماع. وعاد الفاروقي الى معسكرة في الشحيحة. وبدا أن الملك عازما على مهاجمة جيش الفاروقي؛ مما دفع الفاروقي الى إرسال مندوبين الى الملك مظهرا حسن نيته؛ فاطمن الملك نسبيا وعاد الى الرياض. وظلت مخاوف أمراء القصيم من الجيش العثماني قائمة؛ خاصة أنه قد لجأ الى قائد ذلك الجيش سليمان الحسن المهنا الراغب في استعادة امارة بريدة. ونجح سليمان في مسعاه بالاتفاق مع عدد من أهل البلدة ودخلها ليلة ٢٥ رجب ١٣٢٤ هـ؛ لكن محاولته فشلت وهرب. وازداد موقف القوات العثمانية سوءا بعد ان منع امراء القصيم اتباعهم من بيعها ما تحتاجه من أطعمة، وأصبحت تتوق الى مغادرة ذلك الإقليم . وفي ١٠ شعبان وصل الملك عبد العزيز الى عنيزة، وتفاوض مع امراء القصيم، واستقر رأيهم على وجوب انسحاب القوات العثمانية من القصيم سلما او حربا. ولما احس الفاروقي بحرج موقفه، اتفق مع ابن رشيد على نقل قواته الى جبل شمر على ابل ابن رشيد، حتى تأتيه أوامر من السلطات العثمانية العليا. لكن الملك عبد العزيز حال دون اتمام عملية رحيل القوات العثمانية، ونزل باتباعه في البكيرية. وخير الملك الفاروقي بين أن يرحل بقواته الى السر، ليكون بعيدا نوعا ما عن التنسيق مع ابن رشيد، او يرحل الملك تلك القوات الى العراق والمدينة المنورة؛ فإن رفض هذا او ذاك فبانه سيهاجمه. وقبل الفاروقي ان ترحل قواته من نجد، ودبر الملك عودة القوات الشامية الى المدينة والعراقية الى العراق وقد وصلوا جميعا بسلام. وأظهر الملك للسلطات العثمانية أن رحيل تلك القوات كان بناء على طلبها، ولمصلحة السلطان العثماني، وقد شكرت السلطات العثمانية ابن سعود على عمله، وطلبت منه إرسال من يعتمد عليه الى عاصمة الدولة لمقابلة السلطان؛ فأرسل وفدا برئاسة صالح بن عدل، ونال الوفد التكريم، ومنح اعضاؤه نياشين، كما منح رئيسه لقب الباشوية.

القصيم بعد رحيل القوات العثمانية:

تولى حكم جبل شمر سلطان حمود العبيد بن رشيد بعد ان اغتال أميره متعب. وقد اظهر سلطان بن رشيد بداية الأمر المودة لابن سعود، واتصل في الوقت نفسه بزعماء القصيم ليقفوا معه ضده. وفي شهر ذو الحجة ١٣٢٤ اخذ يهاجم بعض القبائل التابعة لابن سعود. وبينما كان الملك قرب بريدة أمسك أتباعه برسول من أميرها يحمل مكاتيب الى سلطان بن رشيد متضمنة استعداداته للوقوف معه ضد ابن سعود؛ فدخل ابن سعود بريدة واجتمع بأهلها وأخذ البيعة منهم مجددا، رغم عدم ثقته بأميرها، فبانه لم ير الوقت مناسباً للتخلص منه. ويعود تراث الملك في التعامل مع أمير بريدة لأنه أراد التفرغ لتأديب زعيم قبيلة مطير فيصل الدويش الذي خرج عن طاعته. وانطلق الملك وأتباعه لمهاجمة الدويش في المجمع، ودارت بين الطرفين معركة ضارية جرح خلالها الدويش. ثم طلب زعيم مطير العفو من الملك فغفا عنه. وكانت تلك المعركة في ٢٣ ربيع الاول ١٣٢٥ هـ. عاد ابن سعود الى الرياض بعد اخضاعه فيصل الدويش. أما أمير بريدة فنكت عهده للملك، واتفق مع سلطان بن رشيد على أن يكونا يدا واحدة، وأرسل الى أمير عنيزة لإقتاعه بالوقوف معهم. وتوهم ابن رشيد بان أهل عنيزة سينضمون اليه حال وصوله الى القصيم؛ وتحرك من بلاده الى هذا الاقليم وتحالف معه فيصل الدويش، لكن اتضح له لاحقا أن أهل عنيزة ليسوا معه بل مع ابن سعود. ولما علم

ابن سعود بتحركات ابن رشيد في القصيم حضر الى عنيزة بأتباعه في منتصف شعبان عام ١٣٢٥ هـ، وهاجم سلطان ابن رشيد حول بريدة، فدخل ابن رشيد البلدة وتحصن فيها.

وفي صباح اليوم التالي تجددت المناوشات بين الطرفين، وخلالها أقبل الدويش مناصرا لابن رشيد وأبا الخيل، فتصدى لهم ابن سعود بأتباعه وهزمهم، وتتبعوهم حتى وصلوا الى مخيم ابن رشيد في الطرفيه واستولوا عليه، وانسحب ابن رشيد وأتباعه الى بريدة، الذين اتفقوا على مهاجمة ابن سعود ليلا في الطرفية فهاجموه لكنه هزمهم. وعاد المنهزمون الى بريدة بينهم فئة من شمر بقيادة فيصل الحمود بن رشيد، أما الامير سلطان فاتجه شمالا، ثم قرر العودة الى بريدة للدفاع عنها امام ابن سعود. ونزل ابن سعود قرب بريدة، وسمح لأتباعه بالإغارة على القرى التابعة لها وأخذ ما يقدرن عليه من ثمار نخيلها وممتلكاتها؛ مما اضطر سكان تلك القرى لطلب العفو من ابن سعود فعفا عنهم. ثم وصل ابن سعود الى عنيزة آخر شعبان ثم رحل الى الرس، وكان هدفه اخراج سلطان ابن رشيد لمنزلته بعيدا عن بريدة، لكن ابن رشيد لم يخرج بل غادر بريدة الى حائل. وقام ابن سعود بغارات وصلت الى اطراف جبل شمر ثم رجع الى الرياض.

نهاية إمارة أبا الخيل :

أقدم سلطان بن رشيد بالاستيلاء على قافلة لجماعة من أهل بريدة كانت في طريقها إلى الشام؛ فغضبوا عليه وعلى أميرهم المتحالف معه، وازداد عدد المؤيدين للملك عبد العزيز؛ فكتبوا إليه يحتثونه على الحضور إليهم. وخرج ابن سعود بأتباعه من الرياض نحو القصيم، ولما وصل عنيزة انتظر فيها أسبوعا حتى مهد أنصاره له الطريق إلى بريدة. وعلم ابن سعود أن ابن رشيد خرج من حائل لمنعه من دخول بريدة، فاتجه شمالا لصدده عن القصيم. ولما وصل إلى الكهفة علم عدم صدق ما بلغه؛ فتوجه لمهاجمة برغش بن طوالة في قرية فيد، ولما اقترب منها طلب منه ابن الطوالة الأمان على أن يكون مواليا له، فوافق ابن سعود. واستأذن ابن طوالة من ابن سعود أن يذهب إلى ابن رشيد ليصلح بينهما، فوافق ابن سعود على شرط أن تكون حائل وتوابعها تحت حكم ابن رشيد وباقي نجد تحكم ابن سعود. وأخذت الأمور في بريدة تتغير لصالح ابن سعود وازداد عدد أنصاره فيها، وبالتالي أصبح الظرف مناسباً للتخلص من أميرها. وأرسل له أنصاره بأنهم سيكونون بانتظاره مع آذان العشاء ليلة ٢٠ ربيع الثاني ١٣٢٦ هـ الموافق ٢١-٨-١٩٠٨م عند البوابة الشمالية من البلدة، ولما وصل إليهم فتحوها له، ودخل أتباعه بريدة، فحدثت مناوشات مع أتباع أميرها. ثم حاصروا الأمير ومن معه في قصرها حتى طلب الأمان في اليوم التالي، فمنحه الملك الأمان وسمح له بالذهاب إلى العراق، وعين مكانه في الإمارة أحمد السديري. ومنذ ذلك التاريخ استقرت الأوضاع في بريدة وتوابعها تحت حكم الملك عبد العزيز آل سعود

المحاضرة السادسة

تشمل المحاضرة المواضيع التالية:

الأوضاع في جبل شمر - حملة الشريف حسين على نجد وما واكبها من أحداث - توحيد الأحساء والقطيف

١- الأوضاع في جبل شمر:

بعد أن دخلت بريدة تحت حكم ابن سعود بأيام وصل إليه ابن طوالة يخبره بموافقة سلطان بن رشيد على شرطه. لكن الأمير سلطان لم يستمر في الحكم إلا أياما معدودات؛ فقد تمكن آل سبهان من مغادرة حائل بالأمير سعود بن عبد العزيز بن متعب، ووصلوا إلى المدينة المنورة. وساعت علاقة الأمير سلطان بأخيه سعود، حتى خرج سلطان من حائل إلى الجوف، فلحقه أخوه وأعادته مقيدا، ثم قتله في جمادى الأولى عام ١٣٢٦ هـ، وتولى سعود الإمارة.

ونقم أهالي جبل شمر على أبناء حمود بن عبيد لقتلهم ابني عبد العزيز بن متعب، فارتحل بعضهم إلى الحجاز. ثم رتب المرتحلون وآل سبهان مع أنصارهم في حائل للإطاحة بسعود الحمود؛ ونجحوا في ذلك في شعبان ١٣٢٦ هـ/ ٩-١٩٠٨م، وتولى حمود بن سبهان الأمور نائباً عن الأمير سعود بن عبد العزيز، الذي كان عمره حينذاك عشر سنين. وعاجلت المنية حمود بن سبهان آخر عام ١٣٢٦ هـ؛ فتولى الأمر بعده زامل بن سبهان، الذي بدأ عهده بغزو أتباع ابن سعود من البادية، وكان الملك عبد العزيز خلالها متجها لغزو فئات من شمر. وحدثت المواجهة بينهما

في الأشعلي، في ٥ ربيع الأول ١٣٢٧ هـ / ٢٦-٣- ١٩٠٩ م؛ فهزمهم ابن سعود، وعادت فلولهم إلى جبل شمر. وزادت المشاكل في جبل شمر؛ فزادت غارات أتباع ابن سعود على أطرافه، وتمكن ابن شعلان من فرض نفوذه على مناطق في الجوف، وازداد عدد الذين يغادرون الإقليم شمالاً وجنوباً؛ وساهم كل ذلك بدفع الإمارة إلى مصالحة ابن سعود مؤقتاً.

٢- حملة شريف مكة على نجد وما واكبها من أحداث :

شهد عام ١٣٢٧ هـ، مجاعة شديدة في نجد، أدت إلى انخفاض واردات ابن سعود من الزكاة؛ إلى جانب النزاع الذي حدث في الحرق بين زعماء البلدة، واضطرار الملك للذهاب إليها ومحاصرة أمرائها حتى وافقوا على رغبته، وأخذ بعضهم معه إلى الرياض. وحفل عام ١٣٢٨ هـ بالأحداث الهامة، ففي بدايته خرج عدد من أحفاد الإمام سعود بن فيصل من الرياض مغاضبين لعبد العزيز، وفيها ذهب عبد العزيز بقوات كبيرة لنصرة أمير الكويت ضد زعيم المنتفق، سعدون المنصور، فدارت بينهما معركة هدية في ربيع الأول، وانتهت بانتصار سعدون على خصمه، وشجعت نتيجتها ابن سبهان بغزو بعض القبائل التابعة لابن سعود.

واستولى أحفاد الإمام سعود بن فيصل على الخرج وإن لم يستولوا على قصرها؛ فتوجه الملك عبد العزيز لاسترداده منهم، لكنهم غادروه إلى الحريق. وبينما كان الملك مشغولاً بهذه المشكلة بلغه وصول شريف مكة، الحسين بن علي، بقواته إلى جهة القويعة. وكان سعد شقيق الملك في تلك الجهات، فظفر به أعوان الشريف، وأخذوه سجيناً معهم. وأصبح الملك عبد العزيز أمام ثلاث جبهات: زعيم جبل شمر، وأحفاد عمه سعود بن فيصل بمن تحالف معهم، وشريف مكة. وقرر الملك التعامل مع كل جبهة على حدة. فتفاوض مع زعيم جبل شمر، وتوصل معه إلى صلح. وأجل حسم مسألة أحفاد عمه فيصل. وتفرغ للتعامل مع الشريف، خصوصاً وأن سعد لديه.

وكانت حملة الحسين على نجد قليلة العدد، وباسم الدولة العثمانية. ويبدو أن بعض النجديين قد شجعوا الشريف على القيام بها خاصة من قبيلة عتيبة نجد. وانتقل الشريف من القويعة إلى الشعراء، ثم إلى نفي. ومنها كتب إلى بعض أهالي نجد مثل شقراء والرس وعنيزة، ليقفوا معه ضد ابن سعود، لكنه لم يصل إلى هدفه. أما الملك عبد العزيز فقد ترك الخرج بعد أن أمنها، وجهاز أتباعه وسار بهم حتى وصل إلى السر، ثم اقترب من نفي حيث وجود الشريف، ومن هناك بعث رسالة إلى الشريف نصحه فيها بالعودة إلى بلاده، وإلا فإنه سيهاجمه. كما كتب إلى زعيم برقاً من عتيبة، محمد بن هندي، يحمله مسؤولية مجيء الشريف إلى نجد وربط أخيه سعد، ويحذره من مغبة عدم إطلاق سراحه. وأخذ ابن هندي الأمر على محمل الجد، وفتح الشريف بشأن سعد. وأدرك الشريف رغبة ابن هندي بتسوية الأمر بين الطرفين، إضافة إلى عدم تعاون ابن رشيد معه، فحاول أن يستغل وجود سعد لديه؛ وأرسل خالد بن لؤي إلى ابن سعود ليعرض عليه شروطه؛ التي منها أن يعترف ابن سعود بسيادة الدولة العثمانية، وأن يدفع مبلغاً سنوياً عن إقليم القصيم بالذات. ونجح خالد بإقناع ابن سعود بأن نوايا الشريف حسنة، وأن هذه الشروط اسمية ولن تدخل حيز التنفيذ، وأنها فقط لتتفع الشريف أمام السلطات العثمانية. واتفق الطرفان، وتبادلا الهدايا، وأطلق سراح سعد. وعاد الشريف إلى الحجاز، والملك عبد العزيز إلى عنيزة ومنها إلى الرياض.

الأوضاع في نجد بعد عودة حملة الشريف إلى الحجاز:

توجه ابن سعود إلى الحريق وحاصرها؛ فخرج أهلها لقتاله، وحدثت معركة بين الطرفين انتهت بانتصار ابن سعود عليهم، وانسحب خصومه من البلدة ودخلها ظافراً. وسعى خصومه لدخول حوطة بني تميم، لكنه منعهم. وذهب أكثر قادة الهزازنة إلى الأفلاج، ثم قضى عليهم لاحقاً. أما أحفاد الإمام سعود بن فيصل فتفرقوا بين البحرين والحجاز. وساد الهدوء علاقة ابن سعود بجبل شمر خلال عامي ١٣٢٩-١٣٣٠ هـ. واضطر عام ١٣٢٩ هـ، للذهاب إلى الكويت نجدة لأميرها، وكذلك التوجه إلى الأحساء للتصدي لفنات من العجمان قامت مع تركي ابن عبد العزيز حفيد سعود بن فيصل، ونتج عنها مقتل تركي، ولجوء العجمان إلى داخل مدن الأحساء. أما عن علاقة الشريف حسين بالملك عبد العزيز، فقد أخذ الشريف بالتضييق على تجار نجد وتجارته مع الحجاز، وجعل الحجاز منطلقاً لأحفاد الإمام سعود بن فيصل، الذين اعتمدوا في تحركاتهم على فنات من قبيلة عتيبة. وسعى ابن سعود لتحسين علاقته بالشريف، وأرسل إليه صالح بن عذل للتفاوض ومعه هدية، فاستقبله الشريف استقبالا حسناً، لكن لما بلغه مقتل عفاس بن محيا، أحد فرسان عتيبة المشهورين، في إحدى هجمات ابن سعود عليه؛ غضب ورد الهدية؛ مما زاد العلاقات توتراً.

٣- توحيد الأحساء والقطيف:

عزم الملك عبد العزيز على توحيد منطقة الأحساء والقطيف مع نجد، لعدة أسباب أهمها :

١- أنها كانت جزءاً من الدولتين السعوديتين الأولى والثانية

٢- أن تبعتها الدولة العثمانية منذ عام ١٢٨٨هـ، جاء بحيلة عندما استنجد بها عبد الله بن فيصل أثناء خلافه مع أخيه سعود. وأن الدولة العثمانية ساندت خصمه ابن رشيد. وأن دخولها تحت حكمه يعزز قوته أمام خصومه شمال البلاد وغربها.

٣- ضرورة تلك المنطقة لأي دولة تقوم في نجد، لأنها المنفذ البحري لتجارها

٤- لأنها منطقة غنية بثرواتها الزراعية، ولأهمية موانئها تجارياً وجمركياً وفكر ابن سعود بتوحيد تلك المنطقة منذ عام ١٣٢٤هـ، عندما قضى على خصمه عبد العزيز الرشيد، لكنه انتظر الظروف المناسبة، والتي اعتقد أنها تهيأت له عام ١٣٣١هـ، لعدة أسباب وهي:

١- تضيق الشريف حسين على التجارة النجدية مع الحجاز

٢- سماح السلطات العثمانية لخصوم ابن سعود بالجوء إلى الأحساء خلال عامي ١٣٢٩-١٣٣٠هـ

٣- الهدوء الذي ساد جبهة ابن سعود مع جبل شمر

٤- هزيمة الدولة العثمانية أمام إيطاليا، وانشغالها بحروب البلقان، مما أضعف قوتها في الأحساء، لدرجة أنها طلبت من ابن سعود إرسال قوة لدعم حاميتها في الأحساء، لكنه اعتذر.

٥- أن السلطات العثمانية أرهقت سكان تلك المنطقة بالضرائب. وعجزت عن حفظ الأمن خارج أسوار المدينة. وتطلع السكان إلى التخلص من هذه الأوضاع

٦- أن البوادر كانت تؤشر على إمكانية تفوق بريطانيا على الدولة العثمانية في شرقي الجزيرة العربية، لذلك أراد ابن سعود منع بريطانيا من السيطرة على تلك المنطقة.

ومهد الملك عبد العزيز بخطوات ذكية لتوحيد الأحساء والقطيف منها :

- اتصل بمؤيديه من سكانها ليساعده على دخول الأحساء

- ذهب بأتباعه إلى تلك المنطقة، بحجة تأديب بعض القبائل والتزود بالأطعمة حسبما أخبر السلطات العثمانية، ثم غادر المنطقة عائداً إلى الرياض أخرى قبيلة العجمان لتغزو معه ضد مطير، وواعدهم بمكان بعيد نسبياً عن الأحساء، حتى لا تفقد عليه خطته. ولما تيقن من خروجهم سارع نحو هدفه، وهو مدينة الهفوف قاعدة الأحساء. وذلك في جمادى الأولى عام ١٣٣١هـ. ولما حصل الملك على المعلومات اللازمة من أنصاره في الأحساء، عن أمكنة الأتراك وقوتهم، وجهزوا له الحبال اللازمة لدخول البلد؛ حضر إلى الهفوف، وقسم رجاله قسمين؛ قسم أبقاها خارجها بقيادة عبد الله بن جلوي ليحتمي ظهور الداخلين، وقسم بقيادة عبد العزيز آل سعود يدخل البلدة ويستولي عليها. ووضعت سلاسل بجانب السور، فصعد عليها أفراد ممن كانوا معه، وأدلو الحبال، فتسور الآخرون ثم انتشروا في البلدة بسرعة.

أما الحامية التركية فتحصنت بقصر إبراهيم ومعها المتصرف. وقد عملت فتحة في سور البلدة دخل منها عبد العزيز وجماعته. وذهب فور دخوله البلدة إلى منزل الشيخ عبد اللطيف الملا، وسارع أعيان البلاد إلى مبايعته هناك. وأرسل ابن سعود مندوباً إلى المتصرف يطلب من التسليم؛ فوافق المتصرف ولكن بشرطين: أولهما: الأمان لرجالهم وأموالهم وما لديهم من سلاح وذخائر. وثانيهما: أن يكتب أعيان البلاد كتاباً بأنهم لا يريدون بقاء عسكر الدولة لديهم. قبل الملك عبد العزيز الشرط الأول على ألا يخرجوا إلا بسلاحهم الشخصي، وقيل شرط الثاني؛ فرضي المتصرف واستسلم هو ورجاله. وكان ذلك في ٢٨ جمادى الأولى ١٣٣١هـ / ٤-٥-١٩١٣م. وقام الملك عبد العزيز بترحيلهم إلى العقير فالبحرين. وأرسل الملك سرية بقيادة عبد الرحمن بن سويلم، إلى القطيف؛ فدخلتها دون صعوبة. وهكذا توحدت المنطقة تحت حكم الملك عبد العزيز آل سعود.

موقف الدولة العثمانية من توحيد الأحساء والقطيف :

استاء العثمانيون من عمل ابن سعود الجريء والمفاجئ؛ فأغروا الذين خرجوا من الأحساء بالعودة إليها، ولما وصلوا إلى العقير، صمد رجال ابن سعود أمام المهاجمين. ولما رأى المهاجمون طليعة خيل النجدة المرسلّة من

الأحساء سارعوا إلى ركوب سفنهم عائدين إلى البحرين. ومكث الملك فترة في الأحساء، حتى استقرت الأمور فيها. وعين عبد الله بن جلوي أميراً عليها، وعاد إلى الرياض في العشر الأواخر من رمضان. فكر العثمانيون بإرسال قوة بحرا من العراق لاسترداد الأحساء والقطيف، لكن بريطانيا حذرتهم من هذه الخطوة. وكانت بوادر الحرب العالمية الأولى قد لاحت في الأفق؛ مما صعب على الدولة العثمانية اتخاذ خطوة عسكرية ضد عبد العزيز في الأحساء، وغيرت الدولة سياستها نحوه، وربما شجعها على ذلك اجتماع الملك عبد العزيز في العقير، مع الوكيل السياسي البريطاني في البحرين، أوائل عام ١٣٣٢هـ؛ فخافت من توثق علاقته بالبريطانيين. بدأ العثمانيون بالاتصال وديا مع عبد العزيز آل سعود، وأرسلوا إليه وفدا برئاسة طالب النقيب، واجتمع به في الصبيحية، واتفق معه على أمور، من أهمها اعتراف عبد العزيز بالسيادة العثمانية مقابل أن تساعد الدولة بالمال والسلاح. وقد صدق الباب العالي على ذلك الاتفاق، وشكر عبد العزيز على موقفه، كما منحه نيشانا عثمانيا من الدرجة الأولى. لكن قيام الحرب العالمية الأولى حال دون تنفيذ الاتفاق. واستمرت الأحساء والقطيف تحت سيادة الملك عبد العزيز.

المحاضرة السابعة

الملك عبد العزيز خلال الحرب العالمية الأولى (١٣٣٢-١٣٣٧هـ/ ١٩١٤-١٩١٨م)

وسندرس ذلك من خلال المواضيع التالية :

١- علاقته بأمرأ جبل شمر:

تنازع آل سبهان على الإمارة؛ فقام سعود الصالح بن سبهان باغتيال زامل بن سبهان عام ١٣٣٢هـ. بعد أن أوغر صدر الأمير سعود بن رشيد عليه. وقامت سياسة زامل على مهادة الملك عبد العزيز، أما سعود السبهان فقد رمى بقتل إمارته مع الدولة العثمانية، فأمدته بالمال والسلاح. وفضل الملك اتباع سياسة الحياد بين الدولة العثمانية وخصومها. وتوترت العلاقات بينه وبين قادة جبل شمر حتى وقعت بينهما معركة جراب.

استنفر الملك أتباعه وسار بهم إلى جراب؛ وهو موضع قريب من الزلفي. وكذلك فعل ابن رشيد، ونزل بأتباعه حول قبة. وسرعان ما بدأت المعركة بينهما في يوم ٨ ربيع الأول ١٣٣٣هـ/ ٢٣-١-١٩١٥م. وانتهت المعركة بانتصار ابن رشيد. وأغارت فئات من شمر على ابل الملك عبد العزيز، وأخذت منها ما استطاعت. وكذلك فعلت فئات من العجمان التي كانت في صف الملك. وكانت قبيلة مطير المتحالفة مع ابن سعود قد وصلت ميدان المعركة بعد أن حسمت؛ فأغارت على ابل ابن رشيد، واستولت على أعداد كبيرة منها.

وقتل في جراب من أتباع الملك عبد العزيز عدد من المشاهير، بينهم: محمد بن جلوي، ومحمد بن شريدة، وصالح الزامل أمير غزو أهل عنيزة. وكان من بين القتلى الضابط البريطاني شكسبير، الذي حضر إلى نجد للتفاوض مع الملك، وأصر على حضور المعركة. وصل الملك عبد العزيز بعد المعركة إلى الأوطاية ولحق به أتباعه، ثم ذهبوا إلى بريدة. أما ابن رشيد فقد حاول احتلال القصيم، ولما لم ينجح عاد إلى حائل. ثم عاد ابن سعود إلى الرياض. ثم تصالح الطرفان في شهر رجب، ولم يستمر الصلح إلا شهرا وأياما؛ ذلك أن هزيمة ابن سعود أمام العجمان في كنزان، شجعت ابن رشيد على نقض الصلح والتوسع على حسابيه، فأغار على القصيم، واستولى على ابل وغنم لأهل بريدة، ثم نزل في الطرفية. وأرسل إلى زعماء بريدة وعنيزة كي ينضموا إليه، لكنهم رفضوا وحذروه من خطورة نقض العهد مع ابن سعود. واستنجد أمير بريدة بأمير عنيزة، الذي أرسل إليه قوة عددها (١٢٠) رجل بقيادة ابن أخيه عبد الله الخالد، وأخذ ابن رشيد يهاجم أهل القصيم ويعود إلى معسكره في الطرفية، حتى قدم إلى القصيم سعود بن عبد العزيز، ومعه فئات من مطير وعتيبة؛ فخاف ابن رشيد أن يتحدوا مع أهل القصيم ضده فانسحب شمالا أواخر شوال عام ١٣٣٣هـ.

وشهد عام ١٣٣٤هـ غارات لتركبي بن عبد العزيز آل سعود على مناطق قريبة من حائل، أثناء غياب الأمير سعود بن رشيد عنها، واضطره للعودة للدفاع عن بلاده. أما عام ١٣٣٥هـ، فشهد تغلغل نفوذ سعود بن سبهان في إمارة جبل شمر، وخطط لعزل الأمير، الذي كشف أمره، فهرب إلى العراق وبقي هناك حتى عام ١٣٣٩هـ. وقد أصبح مكانه في مساعدة أمير الجبل عقاب بن عجل. وأغار الملك عبد العزيز على أطراف جبل شمر أواخر عام ١٣٣٦هـ، فخرج ابن رشيد لصدده، ولما ضعف موقف ابن رشيد أول عام ١٣٣٧هـ، على أثر هزيمة الدولة العثمانية في الحرب، وبعد أن اعتنقت فئات من شمر حركة الإخوان، وتحول ولاؤها إلى ابن سعود؛ ولذا طلب ابن رشيد الصلح من الملك؛ فاستجاب له.

قضية العجمان :

غضب الملك عبد العزيز من العجمان بسبب موقفهم في معركة جراب. وقد توجهت تلك القبيلة بعد جراب إلى شمال شرقي الجزيرة، وأخذت تعتدي على القوافل التجارية وبعض العشائر هناك، ولما كان بعضها تابعا لأمير الكويت، فاستنجد بآبن سعود لرد ما أخذته من أتباعه. ورغم عدم ثقة الملك عبد العزيز بأمير الكويت، فقد لبى نجلته بشروط منها: أن يمدّه برجال وسلاح، وألا يستقبل قبيلة العجمان إن لجأت إلى الكويت، وألا يتوسط بينه وبينهم بالصلح مستقبلا. لكن زعماء تلك القبيلة لم تنتظر مهاجمة الملك، وتوجهوا بقبيلتهم إلى الأحساء ذاتها، وانصرهم بعض أحفاد الإمام سعود بن فيصل المعارضين للملك عبد العزيز. مما دفع الملك للتوجه إلى الأحساء لمحاربتهم، ووصل إلى هناك في شعبان ١٣٣٣ هـ.

وحدثت بين الجانبين معركة كنزان يوم ١٥-٨-١٣٣٣ هـ / ٢٧-٦-١٩١٥ م. وانتصر فيها العجمان ومن حالفهم، وقد جرح الملك، وقتل أخوه سعد. وانسحب المنهزمون إلى بلدة الهفوف قاعدة المنطقة؛ فتعقبهم العجمان وحاصروهم لمدة ثلاثة أشهر تقريبا حتى وصلت قوة من نجد بقيادة محمد بن عبد الرحمن الفيصل. ثم وصلت نجدة أخرى من الكويت بقيادة سالم الصباح، مما اضطر العجمان إلى فك الحصار والانسحاب شمالا. وتابعهم الملك عبد العزيز، وقسم أتباعه إلى فرقتين: إحداهما بقيادته تهاجمهم، والأخرى بقيادة أخيه محمد وسالم الصباح تطاردهم إذا انهزموا. ولما فعلت المدافع فعلها انهزم العجمان؛ فتبعهم محمد وسالم، لكن سالم توقف. (أنظر التفاصيل في الكتاب المقرر ص ١٥٣).

و غضب الملك لفعل سالم، ثم اشتد غضبه حينما قبل مبارك التجاء العجمان إلى الكويت. لكن مبارك الصباح وافاه الأجل في شهر محرم ١٣٣٤ هـ. وسعى خلفه جابر إلى تحسين علاقته بالملك عبد العزيز، وطلب من العجمان مغادرة الكويت، فتوجه أكثرهم شمالا، ونزلوا في صفوان بإذن من أمير الزبير. وتعهّد العجمان بضمانة بريطانية كويتية، بالامتناع عن الأعمال العدائية ضد الملك عبد العزيز. وكانت وفاة جابر بعد عام وشهرين من توليه الحكم، فخلف أخوه سالم، الذي بعده أخذ يتلاشى ما تعهد به العجمان، وأغاروا على أتباع الملك عبد العزيز عبر الأراضي الكويتية. وصمم الملك على مواجهتهم، فضغطت بريطانيا على أمير الكويت لوقف تعاونه معهم؛ فاضطروا نهاية الأمر إلى تغيير موقفهم، وتعهدوا بطاعة الملك عبد العزيز، فغفا عنهم، وعادوا إلى مواطنهم السابقة في الأحساء، والتحق بعضهم بحركة الإخوان وكان ذلك عام ١٣٣٧ هـ.

٣- الملك عبد العزيز والملك حسين :

سعى الشريف الحسين بن علي لتقوية وضعه العسكري عام ١٣٣٣ هـ، وسمح لأهل نجد بالانخراط في جيشه، فالتحق به عدد كبير منهم. ولما اختلف مع حكومة الاتحاد والترقي، التي كانت تحكم الدولة العثمانية، وسعت إلى تترك الولايات العربية، ومن ضمنها الحجاز، واتبعت سياسة مركزية نحوها، مما زاد الشعور القومي العربي ضدها، وأصبح الشريف حسين مع القوميين خاصة في العراق وبلاد الشام في صف واحد.

وسعت بريطانيا - في ذلك الوقت لتحسين موقفها العسكري -، للتحالف مع الشريف حسين ومن يقف معه. والتقت مصالحها مع مصالحه، واتفقا على العمل معا. وتمخض عن ذلك ما عرف تاريخيا بالثورة العربية، التي أطلق الحسين رصاصتها الأولى من مقره في مكة المكرمة يوم ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ / ١٠-٦-١٩١٦ م. وكان عبد الله بن الحسين قد ساهم في إقناع والده بالتعاون مع بريطانيا. ولما طلب الأتراك من الحسين إرسال المتطوعين من الحجاز للمشاركة في الهجوم على مصر، أصر المتطوعون بأن يكونوا تحت قيادة فيصل بن الحسين، الذي كان موجودا في دمشق لدى جمال باشا الذي انطلت عليه الحيلة، وحضر فيصل إلى المدينة، واجتمع بأخيه علي الذي كان عند فخري باشا، قائد الجيش التركي فيها؛ واستأذناه بالخروج لجمع المتطوعين. وأمدّهما بالمال والسلاح، وجمعا المتطوعين للثورة ضد العثمانيين لا للقتال معهم. وبعد إعلان الثورة في مكة استسلمت حامية جدة لقواته المدعومة ببوارج بريطانية، ثم تبعتها مكة المكرمة والطائف.

وحقق فخري باشا بعض الانتصارات على الثائرين حول المدينة المنورة. لكن انهيار المقاومة العثمانية في الشام أضعف موقفه. وحوصرت المدينة؛ فسمح لأهلها بالخروج للمحافظة على ما فيها من مؤن لقواته. ولما أعلنت هدنة الحرب العالمية الأولى في صفر ١٣٣٧ هـ، والتي تضمنت جلاء القوات العثمانية عن بلاد العرب، أمرت الحكومة العثمانية فخري بالتسليم؛ فاضطر إلى ذلك في ٥ ربيع الأول ١٣٣٧ هـ. وشهد عام ١٣٣٣ هـ هزيمة الملك عبد العزيز في جراب وكنزان، مما دفعه لتوقيع معاهدة دارين أو القطيف مع بريطانيا عام ١٣٣٤ هـ. والتي منحت بعض

النفوذ لبريطانيا على الملك، وحدث من تحركاته ضد مناطق الخليج المرتبطة بمعاهدات حماية مع بريطانيا؛ ورغم ذلك فإن في بعض بنودها اعترافا بسيادته على ما تحت يده من مناطق، وتعهدها بحمايته من أي عدوان خارجي.

موقف الملك عبد العزيز من ثورة الشريف حسين:

وقف الملك عبد العزيز موقفا حذرا من ثورة الشريف حسين، لكنه أقرب ما يكون إلى الحياد؛ انسجاما مع الظروف التي كان يمر بها. وكان يخشى أن يتقوى الحسين بالثورة؛ فيهدد بلاده وحكمه. لكن بريطانيا من خلال موظفيها في الخليج طمأنته بأنه لن يحصل عليه أي اعتداء؛ فتبادل الرسائل الودية والهدايا مع الحسين، وسمح للنجديين بالانخراط في جنديته.

ولما أعلن الحسين نفسه ملكا للبلاد العربية كلها، زادت مخاوف ابن سعود وغضبه. واجتمع في الكويت بممثل بريطانيا في الخليج، ونتج عن الاجتماع أن تعهدت بريطانيا للملك عبد العزيز بتخصيص مساعدة مالية شهرية، وإمداده بالأسلحة، وضمان عدم تدخل الحسين بشؤونه الخاصة، أو التحدث باسم العرب باعتباره ملكا عليهم، على ألا يقوم الملك عبد العزيز بأي نشاط ضده. وكان من مصلحة بريطانيا خلال الحرب امتناع الملك عبد العزيز عن القيام بأي عمل عسكري ضد الشريف حسين. واستمرت العلاقات ودية بين عبد العزيز والحسين خلال عام ١٣٣٥هـ، واعتذر ابن سعود عن المشاركة في القتال إلى جانب الحسين بسبب مشاكله الداخلية، خاصة مشكلته مع آل رشيد. واختتم ذلك العام بحج عشرات الآلاف من النجديين بقيادة محمد بن عبد الرحمن الفيصل، فلقوا في مكة حفاوة كبيرة.

وتوترت العلاقات بين الملكين عام ١٣٣٦هـ، بسبب انضمام فئات من القبائل الموجودة على الحدود بين نجد والحجاز إلى حركة الإخوان؛ ثم اشتد الخلاف بينهما على أثر إظهار كثير من سكان تربة والخزعة التابعتين إداريا حينذاك للحسين، حماسهم للمبادئ التي قام عليها الحكم السعودي؛ وكان في طليعتهم أمير الخزعة الشريف خالد بن لؤي، الذي خرج عن طاعة الحسين في ذلك العام. وحاول الحسين إخضاعه بالقوة لكنه لم ينجح، وتمكن خالد وأتباعه ومن انضم إليهم من الإخوان، خاصة من هجرة الغطف، من هزيمة الحملات التي أرسلها الحسين لإخضاعهم، واختتمت تلك المواجهات بين الطرفين بمعركة تربة المشهورة بعد الحرب العالمية الأولى. والتي سنتحدث عنها لاحقا.

٤- قيام حركة الإخوان :

أطلقت كلمة (الإخوان) على طلاب العلم، أو المتحمسين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ عهد الشيخ محمد بن عبد الوهاب. ثم أصبحت مرتبطة تاريخيا بحركة البادية الاستيطانية التي تمت في عهد الملك عبد العزيز، الذي أدرك بما أوتي من حكمة، أن من أسباب نجاح أسلافه من آل سعود مناصرتهم للعقيدة الإسلامية الصافية، وتطبيقهم لأحكامها؛ وأدرك أن العمود الفقري لقوة أسلافه في مواجهة خصومهم كان الحاضرة من السكان، وأن القبائل الرحل كانت تقف إلى جانب الأقوى؛ وأنه ليس من السهل ترك أبناء البادية الأمور التي اعتادوا عليها وتوارثوها من منات السنين، كتبادل الغارات ومهاجمة القوافل التجارية وغيرها، ومن الصعوبة السيطرة عليهم أمنيا. ومن هنا جاءت فكرته الرائدة التي عرفت تاريخيا بحركة الإخوان.

وبدأت الفكرة بإرسال الدعاة إلى القبائل ليرشدون أفرادها إلى دين الله القويم، ويحثونهم على هجر ما اعتادوا عليه من أمور لا تتفق وأحكام الدين، وأن استقرارهم في أماكن معينة يسهل عليهم معرفة تلك الأحكام وتطبيقها. وأتت تلك الجهود ثمارها عام ١٣٣٠هـ، عندما قدمت إلى (حرمة) جماعة من قبيلة حرب، من أعيانهم سعد بن مثيب، ومعهم أفراد من قبيلة مطير، للاستقرار ومعرفة أمور دينهم، وانتقلوا في العام نفسه إلى مورد الأوطاية، حيث بنوا مساكن لهم. وأطلق على مستقرهم الجديد اسم ((هجرة))؛ إشارة إلى هجرهم نمط حياتهم إلى نمط جديد يعتمد على أسس دينية. وهكذا نشأت الهجرة الأولى، التي أصبحت لاحقا مركزا لزعيم قبيلة مطير فيصل الدويش.

وتوالى إنشاء الهجر في مواطن القبائل. وكان من أعظمها شأنًا هجرة الغطف، مقر زعيم أحد فرعي قبيلة عتيبة الكبيرين: سلطان بن بجاد. وشجع الملك عبد العزيز الذين رغبوا بالاستقرار ببعض المساعدات، خاصة بناء المساجد، وتأمين الكتب الدينية، وإرسال الدعاة والمعلمين. واتخذ المستقرون الجدد والمنضمون إليهم اسم ((الإخوان))؛ إشارة إلى أن ما يربطهم هو رباط الأخوة الدينية، وليس رباط القبيلة. ووصل حماسهم لهذه الحركة لدرجة معارضة من لم ينضم إليها من قبائلهم أو من القبائل الأخرى. ولا بد من التنويه أن دافع بعض الذين انضموا إلى حركة الإخوان لم يكن نابعا من قناعة دينية، بل ربما ليتجنبوا بأس الإخوان، أو رغبة في المشاركة في الغنائم التي يكسبونها.

كان تكوين حركة الإخوان من أهم الأحداث خلال الحرب العالمية الأولى، وإن لم تظهر آثارها الإيجابية بشكل فعال إلا بعد الحرب. وكان للحركة فوائد عدة في مسيرة توحيد البلاد، منها:

- ١- القضاء بشكل كبير على الاعتداءات التي كانت تتبادلها القبائل
- ٢- تكوين وحدات عسكرية جمعت بين التجربة القتالية والحماس الديني، والتي استبسلت في تحقيق هدفها.
- ٣- التخفيف من حدة الولاء القبلي لصالح الزعامة الدينية التي تمثلت في الحكومة المركزية.
- ٤- تسهيل مهمة الحكومة المركزية في حفظ الأمن، بعد استقرار كثير من القبائل الرحل.

المحاضرة الثامنة

تتناول هذه المحاضرة الموضوعين التاليين:

استكمال توحيد نجد توحيد عسير

١- استكمال توحيد نجد :

تعزز موقف الملك عبد العزيز بعد توحيد منطقة الأحساء والقطيف مع المناطق الخاضعة له في نجد. إضافة إلى نجاحه في حل مشكلة العجمان؛ إلى جانب تبلور حركة الإخوان وظهور فوائدها عام ١٣٣٧ هـ، حيث أصبحت قوة ضاربة في جيش الملك عبد العزيز، وظهر ذلك واضحا من خلال دور الإخوان في معركة تربة وما تلاها من معارك. وتزامن ذلك كله حدوث خلاف بين آل سبهان الذي كانوا يسيرون الأمور في جبل شمر، وانضمام فئات من شمر نفسها إلى حركة الإخوان، إلى جانب فقدان زعماء جبل شمر مساندة الدولة العثمانية إثر هزيمتها في الحرب العالمية الأولى.

وتطورت الخلافات بين آل رشيد في حائل في رجب عام ١٣٣٨ هـ؛ عندما أقدم عبد الله بن طلال على قتل الأمير سعود بن عبد العزيز غدرا خارج بلدة حائل، وقتل ممالك سعود القاتل فورا، وعادوا إل حائل ومعهم الأمير عبد الله بن متعب بن عبد العزيز، الذي بويع أميرا للجبل. وكان موقفه ضعيفا، وأرسل وفدا إلى الملك عبد العزيز لتجديد الصلح بين الجانبين. لكن الملك عبد العزيز اشترط أن تكون الشؤون الداخلية لآل رشيد، والخارجية في يده، فلم يتفق الطرفان. وأظهر الملك عبد العزيز الحزم في تعامله مع آل رشيد بع الحرب، خصوصا بعد تحسن موقفه العسكري بعد انتصاره في تربة عام ١٣٣٧ هـ، وما حققه من نجاح في عسير عام ١٣٣٨ هـ. واعتقد الملك بضرورة إنهاء إمارة آل رشيد تجنباً لما قد يحدث من تحالف بينهم وبين الأشراف الذين يحيطون به في كل من الحجاز والعراق وشرق الأردن.

بدأت العمليات العسكرية ضد إمارة آل رشيد في شوال عام ١٣٣٨ هـ، عندما أرسل الملك ابنه سعود بقوة كبيرة من الإخوان صوب جبل شمر، فنجحت في إغارتها على فئة من شمر في الشُعبية، ثم عادت من هناك. ولما تفرغ الملك من مسألة الكويت عام ١٣٣٩ هـ، أذن للإخوان بمهاجمة بلدان جبل شمر وباديتهم، ونجحت في مواجهاتها رغم كثرة خصومها. ثم توجه الملك عبد العزيز إلى القصيم، وأمر أتباعه خاصة الإخوان، بالاستعداد لغزو جبل شمر. وقسمهم إلى قسمين؛ أحدهما بقيادة ابنه سعود، والآخر بقيادة أخيه محمد.

اتجه سعود بمن معه وهاجم فئات من بادية شمر، وغنم منها أموالا كثيرة. أما محمد فاتجه إلى حائل وحاصرها. واستأذنه كبارها بذهاب وفد منهم لمفاوضة الملك، فأذن لهم. وعرض الوفد أن تكون الشؤون الخارجية بيد الملك، لكنه رفض؛ وطلب توحيد جبل شمر مع بقية البلاد تحت قيادته. ورفض آل رشيد ذلك. واستمر حصار حائل، بعد أن أصبحت القيادة لسعود بن عبد العزيز. وأثناء الحصار حضر إلى حائل محمد بن طلال بن رشيد، بترتيب مع بعض زعمائها؛ مما دفع الأمير عبد الله بن متعب إلى اللجوء إلى معسكر سعود، الذي ترك الحصار وذهب به إلى والده. واستولى محمد بن طلال على مقاليد الأمور في حائل، واستغل غياب سعود، وشن حملات على السرايا السعودية التي كانت حول حائل.

وأمر الملك عبد العزيز فيصل الدويش، أحد قادة الإخوان، التوجه باتباعه إلى جبل شمر ومحاصرة بلدانه. وخرج محمد بن طلال لمواجهة، وتبادل الطرفان الغارات، حتى وصل الملك بقوة كبيرة من الإخوان ومعه بعض المدافع، وخطط للمعركة جيدا؛ فأحاط بآبن طلال وأتباعه، واضطروهم إلى الانسحاب إلى حائل، وواصل الملك زحفه إلى حائل وحاصرها، حتى نفذت المؤن لدى سكانها الذين استسلموا في الدفاع عنها. ورفضت بريطانيا التوسط بين ابن طلال والملك عبد العزيز بناء على طلب ابن طلال. واقتنع غالبية سكان حائل بعدم جدوى مقاومتهم، فقام عدد من زعماء حائل، بقيادة إبراهيم بن سبهان، بالاتصال بالملك ومساعدته على دخول البلدة مقابل الأمان لأهلها؛ وتم ذلك دون إراقة دماء. واعتصم ابن طلال بقصر الإمارة، ثم طلب الأمان من الملك، فمنحه إياه. وكان ذلك في ٢٩ صفر ١٣٤٠هـ / ٣١-١٠م، وهكذا وتوحد جبل شمر مع باقي نجد.

وعامل الملك عبد العزيز، أهالي حائل بالحسنى. ووزع عليهم الأطعمة، ثم عاد إلى الرياض ومعه ابن طلال وبقيّة أفراد آل رشيد حيث أقاموا معرزين. وعين في إمارة الجبل إبراهيم بن سبهان، ثم أحل مكانه عبد العزيز بن مساعد بن جلوي.

٢- توحيد منطقة عسير:

قاوم أهل عسير قوات محمد علي باشا والي مصر، وكذلك جيوش الدولة العثمانية، التي تمكنت من السيطرة على عسير، لكن المقاومة لم تنقطع. وجعل العثمانيون محمد بن عائض معاوناً للمنتصر في عسير، بوساطة من شريف مكة. ولما انسحب العثمانيون من عسير في أعقاب عام ١٣٣٦هـ، استقل حسن بحكمها. وتطلع جيران عسير إلى التوسع على حسابها بعد انسحاب العثمانيين، خصوصا الإدريسي حاكم جازان، والشريف حسين حاكم الحجاز. وانقسم زعماء عسير بين الحاكمين.

ولما تعززت قوة الملك عبد العزيز بعد انتصاره على قوات الشريف حسين في معركة تربة عام ١٣٣٧هـ، وتعرّز نفوذه في المناطق المجاورة لعسير، وتأثرت فئات من قبائلها بحركة الإخوان، خصوصا قحطان وزهران؛ مما أدى إلى خلافها مع الأمير حسن بن عائض. واتصلت بعض هذه الفئات بالملك عبد العزيز، وشكت إليه تصرفات أميرهم؛ فأرسل الملك وفدا للتوسط بين الطرفين، لكن ابن عائض رفض التوسط، باعتباره تدخلا من ابن سعود في شؤونه الداخلية. أضيف إلى ذلك علاقة الملك عبد العزيز الجيدة آنذاك بالإدريسي المناوئ لابن عائض، الذي حذر ابن سعود من امتداد نفوذ الشريف حسين إلى عسير.

واعتقد الملك عبد العزيز أن الوقت مناسب لتحركه نحو عسير. وأرسل جيشا عام ١٣٣٨هـ، بقيادة الأمير عبد العزيز بن مساعد. ودارت بين هذا الجيش وابن عائض معركة في حجلة، انهزم بها ابن عائض وعاد إلى أبها، ولما لاحقه ابن مساعد التجأ إلى جبل حرمة. واستسلم لاحقا هو وأسرته للقائد السعودي، وأرسلوا إلى الرياض، حيث لاقوا الرعاية والتكريم. أقام آل عائض فترة في الرياض، ثم عادوا إلى عسير، وخصصت لهم مرتبات شهرية. وعين الملك أميرا من قبله على عسير، لكن شكاوى السكان عليه لم تنقطع، فاستبدل بآخر، واستمرت الشكاوى، وقد قد يكون آل عائض ساهموا بمثل هذه الأمور. ثم تزعم حسن بن عائض ثورة في عسير، وحاصر الأمير السعودي وحاميته في أبها، مما اضطر الأمير إلى الخروج منها بقواته وأسلحته.

وتزامن ذلك مع تمكن الملك عبد العزيز من توحيد جبل شمر، فلما علم بما حدث في عسير أرسل جيشا بقيادة ابنه فيصل قوامه ستة آلاف مقاتل معظمهم من الإخوان. انطلق الجيش من نجد في شوال عام ١٣٤٠هـ، ولما اقترب من عسير التحق به أربعة آلاف مقاتل من قحطان وزهران وشهران وغيرها. وواصل زحفه نحو أبها، ولما اقترب منها تركها آل عائض وأنصارهم. ولجأ حسن إلى حرمة، ومحمد بن عائض إلى القنفذة، حيث استجد بالملك حسين؛ فأمده بسرية صغيرة ومائتي جندي. وتمكن فيصل من اقتحام حرمة، لكن حسن فر منها. وانتصر أتباعه من الإخوان على محمد بن عائض. وعين سعد بن عفيصان أميرا على عسير، وأبقى معه خمسمائة مقاتل، وعاد إلى الرياض.

وأعاد آل عائض تجميع أنصارهم، وحصلوا على معونة من الملك حسين، وحاصروا ابن عفيصان في أبها، وكادت تسقط في أيديهم لولا وصول نجدة من الرياض. وتولى إمارة عسير خلفا لابن عفيصان، عبد العزيز بن إبراهيم، الذي امتاز بالدهاء والحزم. وقد نجح بالتفاوض مع ابن عائض في حرمة، واستقدمه إلى أبها، وأكرمه. واتفق معه على سلام أدى إلى ترحيله إلى الرياض. وبذلك توحدت عسير مع بقية البلاد السعودية تحت حكم الملك عبد العزيز.

المحاضرة التاسعة

١- توحيد الحجاز

٢- توحيد المخلاف السليماني (جازان)

١- توحيد الحجاز:

خرج الحجاز عن حكم الدولة السعودية الأولى، وعين محمد علي باشا والي مصر، محمد بن عون شريفاً على مكة، وقد تسلم الشريف الحسين بن علي بن محمد عون شرافة مكة عام ١٣٢٦ هـ، الذي أشرنا سابقاً إلى حملته على نجد، وكذلك إلى تذبذب علاقته بالملك عبد العزيز خلال الحرب العالمية الأولى، وخلافهما على واحتى تربة والخربة التابعتين إدارياً حينذاك إلى الشريف حسين. خصوصاً بعد خروج أمير الخربة الشريف خالد بن لؤي، عن طاعة الحسين، وانضمامه إلى جانب الملك عبد العزيز، وقد عجزت قوات الملك حسين عن إخضاعه، خصوصاً وقد تحمس أتباعه للدعوة السلفية وتأثروا بحركة الإخوان، التي شاركت معه في صد قوات الشريف حسين.

معركة تربة:

شعر الملك حسين بنشوة النصر بعد انتصار حليفه بريطانيا في الحرب وهزيمة الدولة العثمانية. خصوصاً بعد طرد العثمانيين من المدينة المنورة عام ١٣٣٧ هـ، وحصوله على أسلحة حديثة من القوات العثمانية. ورغب باستعادة نفوذه في تربة، ربما مستنداً على دعم بريطانيا المعنوي، وقد خولته بالسيطرة على واحتى تربة والخربة، رغم تحذير (فيلبي) من قيام الحسين بهذا الأمر؛ لأنه سيعجز عن تحقيق هدفه أمام أتباع الملك عبد العزيز. وأرادت بريطانيا إشغال الحسين عن بلاد الشام وفلسطين.

جهز الملك حسين ابنه عبد الله بجيش نظامي مزود بالمدافع وأسلحة حديثة، إضافة إلى آلاف من رجال القبائل. وتجمع جيشه في عشيرة. واتصل الملك عبد العزيز مع بريطانيا محذراً، فطلبت بريطانيا من الحسين التريث والتفاهم مع ابن سعود، لكنه رفض. وتقدم جيشه صوب تربة ودخلها دون مقاومة، وعامل أهلها بقسوة. وأرسل ابن سعود إلى تربة؛ قوة من الإخوان على رأسها سلطان بن بجاد، الذي كان مركزه في هجرة الغطف، ومعها فئات من قحطان بقيادة حمود بن عمر، وأتباع خالد بن لؤي. وسار الملك عبد العزيز على رأس جيش كبير إلى تربة.

وأرسل الملك عبد العزيز وفداً إلى الأمير عبد الله في تربة، ليعرض عليه حل مشكلة الحدود بالطرق السلمية، لكنه رفض باعتبار تربة تابعة للحجاز. وعاد الوفد إلى معسكر الإخوان بين تربة والخربة، ونقل إليهم تعنت الأمير عبد الله. واستعد الإخوان للهجوم على تربة، الذي بدأ فجر يوم ٢٥ شعبان ١٣٣٧ هـ، فأبادوا معظم جيش عبد الله، واستولوا على كثير من المون والأسلحة. ووصل الملك عبد العزيز بعد خمسة أيام من المعركة، وأقام في تربة عشرة أيام يدير شؤونها. واعتقد المسؤولون في الحجاز أن الإخوان سيواصلون زحفهم إلى الطائف، فاتصلوا بالمعتمد البريطاني في جدة، طالبين تدخل حكومته. وحذرت بريطانيا ابن سعود من التقدم نحو الطائف، وطلبت منه الانسحاب من تربة، حتى يتفاوض مع الملك حسين بشأن الحدود. ومراعاة للظروف انسحب الملك عبد العزيز بقواته من تربة بعد أن عين عليها أميراً من قبله.

من معركة تربة إلى الزحف على الحجاز:

أثرت نتائج معركة تربة على الملك حسين، بعد أن فقد كثيراً من رجاله وأسلحته المتطورة. وتعتت في مواقفه تجاه نجد؛ فقطع التعامل التجاري مع النجديين، ومنعهم من الحج. وسعت بريطانيا لتهدة الحسين، فأمدته ببعض الطائرات، وسعت ليسحب الملك عبد العزيز قواته من تربة، ففعل. كما طالبته بتأجيل حج أتباعه ذلك العام، فلم يمانع. واتصف موقف ابن سعود بالمرونة تجاه بريطانيا، لطبيعة نفوذها بالمنطقة، وكذلك ليكسبها إلى جانبه في مواجهة الشريف حسين، إضافة إلى ما لديه من مشاكل داخلية أخرى في جبل شمر وعسير. ونجحت وساطة بريطانيا في عقد هدنة بين الحسين وعبد العزيز عام ١٣٣٨ هـ، لكن الحسين استمر بمنع أهل نجد من الحج حتى عام ١٣٤٠ هـ، حينما سمح لعدد محدود منهم بالحج، بشرط أن يكونوا تحت قيادة أمير، يمنعهم من القيام بأي عمل يعكر الأمن.

وأدت تطورات الأوضاع في الجزيرة العربية إلى تقوية موقف الملك عبد العزيز، بعد أن بسط نفوذه على جبل شمر عام ١٣٤٠ هـ، ثم على عسير عام ١٣٤١ هـ. وزاد نشاط أتباعه على الحدود مع العراق وشرقي الأردن، فأخذ الملك حسين يطالبه بالتخلي عن جبل شمر وعسير، وعاد لمنع النجديين من الحج. ولحل المشاكل بين ابن سعود

وجيرانه من الهاشميين في الحجاز والعراق وشرق الأردن؛ دعت بريطانيا جميع الأطراف إلى مؤتمر في الكويت، لكن الحسين رفض المشاركة فيه، قبل انسحاب ابن سعود من حائل وعسير. وانعقد المؤتمر دون مشاركة الحجاز، ولم يصل إلى اتفاق؛ لأن ممثلي الأردن والعراق تعرضوا لمسائل تخص الحجاز. مما مهد الطريق لدخول العلاقات بين الملكين مرحلة الحسم.

اكتمال توحيد الحجاز:

توترت العلاقات بين الحسين وعبد العزيز بعد فشل مؤتمر الكويت، وازدادت توترا بعد اتخاذ الحسين لقب خليفة المسلمين عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م. وأصدر ابن سعود بياناً أشار فيه إلى عدم أهلية الحسين لتولي منصب الخلافة. وتوجه ابن سعود إلى القصيم، وعين عبد العزيز من مساعد بن جلوي أميراً على جبل شمر، وربط به شمال جبل شمر وإقليم القصيم. وذلك تمهيداً لخطوة عسكرية نحو الحجاز. وتزامن ذلك مع قيام بريطانيا بقطع معونتها الاقتصادية عن ابن سعود عاد الملك عبد العزيز إلى الرياض، وعقد مؤتمراً في ذي الحجة عام ١٣٤٢هـ، برئاسة والده الإمام عبد الرحمن الفيصل، وحضره العلماء وأمراء البلدان وقادة الإخوان ورؤساء القبائل. وافتتحه الإمام بالإشارة إلى تذمر أهل البلاد من منعهم من الحج، وشرح أبعاد الموقف، وتوصل الجميع إلى وجوب أداء الحج سلماً أو بالقوة.

واتخذ الملك عبد العزيز خطوات عسكرية في هذا الاتجاه، فأرسل حملتين من أتباعه إلى كل من العراق وشرقي الأردن. أما الثالثة وقوامها ثلاثة آلاف مقاتل، فكانت إلى الحجاز، بقيادة سلطان بن بجاد وخالد بن لؤي، ورؤساء هجر آخرون. اجتمعت القوة في تربة، وانطلقت صوب الطائف، حتى اقتربت منها في بداية شهر صفر عام ١٣٤٣هـ، واكتسحت حصونها الأمامية، وعجزت القوة النظامية الموجودة فيها عن الدفاع عنها؛ فانسحبت إلى شمال الطائف. ولما وصلت نجدة يقودها الأمير علي بن الحسين، تمركزت في الهدا، واتجهت إليها القوات النظامية التي كانت في الطائف.

ونجحت قوات ابن سعود في دخول الطائف، وراحوا يتهبون ويقتلون من يقاومهم، ولم تنته المأساة إلا بعد تدخل القائد خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد. وهكذا دخلت الطائف تحت حكم الملك عبد العزيز. وأثر ما حدث في الطائف على معنويات قوات الحسين. وحدثت المواجهة الحاسمة بين الجانبين ليلة ٢٦ صفر، وانهزم علي بن الحسين، واستولى الإخوان على ما كان معه من أسلحة وذخائر. انتظر الإخوان في الطائف تعليمات الملك عبد العزيز، ودب الخوف في نفوس أهل مكة، وفر كثير منهم إلى جدة. واجتمع وجهاء الحجاز بعد فشلهم في الحصول على معونة خارجية، وقرروا تخلي الحسين عن الملك لابنه علي، على أمل أن يصل إلى تسوية سلمية مع الملك عبد العزيز. وتم التنازل من الأب لابن. وبويع علي بالملك في ٥ ربيع الأول ١٣٤٣هـ. وغادر الحسين مكة إلى جدة ثم إلى العقبة.

لم يثق الملك علي بقدرته على الدفاع عن مكة، فغادرها في ١٤ ربيع الأول إلى جدة، ودخلت قوات الملك عبد العزيز مكة بأمان، مهللين مكبرين دون إراقة دماء، في ١٧ ربيع الأول عام ١٣٤٣هـ / ١٥-١٠-١٩٢٤م. وتولى خالد بن لؤي مقاليد الأمور فيها. وجه الملك عبد العزيز - بعد سيطرة أتباعه على مكة - خطاباً إلى أهل الحجاز، وضح فيه مأخذه على حكاهم، والأسباب التي دفعته لقتالهم، وأنه سيعامل أهل الحجاز بالحنس. وسعى زعماء الحجاز في جدة لطلب هدنة من خالد بن لؤي، الذي أجابهم أن الأمر بيد الملك عبد العزيز. وصمم الملك علي على المقاومة.

وخير خالد بن لؤي أهل الحجاز بين أمرين: القبض بأنفسهم على الملك علي وإخراجه من الحجاز، أو إمدادهم بقوة لتحقيق الهدف نفسه، فلم يتفقوا على رأي. ورفض الملك عبد العزيز طلب الصلح الذي عرضه الملك علي. وأصر على وجوب تخليه عن الحكم. وأكد معتمدو الدول الأجنبية وقناصلها في جدة التزامهم بالحياد تجاه الحرب في الحجاز، ما دامت رعاياهم بأمان.

وتوجه الملك عبد العزيز بجيش كبير من الحاضرة والإخوان إلى مكة، فدخلوها معتمريين في ٨ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ. وبقي الملك في مكة شهراً، وتلقى خلاله العديد من عروض الصلح من جهات متعددة، لكنها لم تنجح. ثم أمر أتباعه بالزحف على جدة، وعسكر بهم في الرغامة. وكان الملك علي قد حصن جدة وأحاطها بأسلاك شائكة. وكانت تصله الإمدادات العسكرية من أبيه وأخيه عبد الله. وشدد الملك عبد العزيز الحصار على جدة، ولم يحاول اقتحامها، حتى لا يحدث أي خطر على ممثلي الدول الأجنبية هناك فتفق ضده. وتحسن وضعه العسكري بتوالي الإمدادات إليه. ولم يقصر نشاطه على جبهة جدة، بل بعث سرايا إلى جهات متعددة من الحجاز، فدخلت الليث وقنفذة تحت حكمه سلماً، ونجحت قواته في رابغ. مما جعله يؤمن سبل الحج، فكان لذلك تأثيراً طيباً على موقفه.

وحاول الملك علي مهاجمة معسكر السعوديين في الرغامة مستغلا موسم الحج وغياب الملك عبد العزيز، لكن حضور الزعيم القحطاني فيصل بن حشر أنقذ الموقف، وأباد أكثر المهاجمين من جيش الملك علي ونجح الملك عبد العزيز في بسط نفوذه على شمال وشمال غرب الحجاز؛ وكانت أولى السرايا التي بعثها إلى ينبع سرية بقيادة عمر بن ربيعان. وطلبت بريطانيا من الملك عبد العزيز أن يمتنع عن مهاجمة العقبة، التي كان الحسين فيها.

وكانت أول سرية وجهها الملك عبد العزيز إلى المدينة المنورة، بقيادة صالح بن عدل. وبعد انتهاء موسم الحج، بعث إليها فيصل الدويش وعبد المحسن الفرع بأتباعهما. وكانت تصل المساعدات إلى حامية المدينة من الأردن، مما ساعدها على الصمود، واستمر أتباع الملك عبد العزيز بمحاصرتها، حتى نفذ طعام أهلها؛ فرأى بعض كبارها الدخول في طاعة الملك عبد العزيز، وطلبوا من الملك إرسال أحد أبنائه ليسلموا له، فبعث ابنه محمدا، ولما وصلها وجد أصحاب الأمر فيها يرفضون التسليم، فشدد الحصار عليها، حتى خرج وفدا منهم لمفاوضته على التسليم، واتفق الطرفان مقابل أن يؤمنهم على أرواحهم وأموالهم. وكان ذلك في ١٨ جمادى الأولى عام ١٣٤٤هـ / ١٢-٣-١٩٢٥م. أدى خروج المدينة من يد الملك علي، إلى التأثير سلبا على معنوياته وأتباعه. وازداد حرج المحاصرين في جدة مع طول فترة الحصار وقلة الأطعمة ومياه الشرب. فسيطر اليأس عليهم، واضطر كثير من أهلها إلى مغادرتها إلى مكة أو إلى غيرها. مما دفع الملك علي إلى طلب التفاوض مع الملك عبد العزيز في ٢٩ جمادى الأولى ١٣٤٤هـ، وكان ذلك بواسطة المعتمد البريطاني في جدة، ووافق الطرفان على اتفاقية التسليم، ووقعها عليها يوم ١ جمادى الآخرة.

اتفاقية تسليم جدة للملك عبد العزيز (١ جمادى الآخرة ١٣٤٤هـ)

من أهم شروطها:

١- تنازل الملك علي عن ملك الحجاز، ويرحل عنها بممتلكاته الشخصية فقط، ويسلم كل ما هو ملك لحكومة الحجاز من أسلحة وبواخر وأموال ومنشآت إلى الملك عبد العزيز.

٢- يضمن الملك عبد العزيز سلامة الموظفين والعسكريين والأشراف والقبائل، ويمنحهم العفو العام، وترحيل العسكريين الراغبين إلى أوطانهم وبذلك انتهى حكم الأشراف للحجاز، وتوحدت منطقة الحجاز مع بقية البلاد التي يحكمها الملك عبد العزيز. وغادر الملك علي جدة في ٦ جمادى الآخرة ١٣٤٤ / ٢١-١٢-١٩٢٥م. ثم دخلها الملك عبد العزيز. ومما تجدر ملاحظته أن من العوامل التي ساعدت الملك عبد العزيز على توحيد الحجاز، انتشار الوهج الديني لحركة الإخوان خصوصا في واحتي تربة والخزعة الحجازيتين آنذاك واختلاف الملك حسين مع قريبه أمير الخزعة الشريف خالد بن لؤي، وانضمامه إلى الملك عبد العزيز، ودخول جبل شمر وعسير تحت حكم ابن سعود. وعدم وقوف بريطانيا إلى جانب الشريف حسين في ساعته الحرجة، رغم مساعدتها السابقة له لمصالحها الخاصة، ثم رأت تمشيا وفق المستجدات عدم الوقوف معه.

٢- توحيد المخلاف السليماني (جازان):

كان النفوذ في عسير وجازان لمحمد بن علي الإدريسي، الذي وسع نفوذه إلى الحديدة بعد انسحاب الدولة العثمانية منها، إثر هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. ووقع الإدريسي معاهدة حسن جوار مع الملك عبد العزيز عام ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م. توفي محمد الإدريسي عام ١٣٤١هـ، وخلفه ابنه علي الذي كان عمره سبعة عشر عاما. فقبلته الأسرة على مضض، وقام بعض أفرادها بحركات ضده. أتاحت هذه الظروف الفرصة لحاكم اليمن، إلى جانب انشغال الملك عبد العزيز بمسألة الحجاز، فاستولى على الحديدة وبعض البلدان المجاورة لها. مما أدى إلى حدوث ثورة على حاكم عسير علي الإدريسي، بزعامه عمه الحسن، الذي أصبح حاكم جازان عام ١٣٤٤هـ.

سعى الحسن للحصول على مساعدة إيطاليا، ولم ينجح. وتزامن ذلك مع نجاح الملك عبد العزيز في توحيد الحجاز، فرأى الحسن الإدريسي، لحماية ما تبقى من بلاده من حاكم اليمن، أن يحصل على حماية الملك عبد العزيز، وعقد معه اتفاقية مكة عام ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م. وأهم ما تضمنته الاتفاقية، أن يتولى الملك الشؤون الخارجية والدفاع عن البلاد ضد أي اعتداء، وأن يتولى الحسن الإدريسي إدارة الشؤون الداخلية في منطقته. وأرسل الملك مندوبا من قبله لمساعدته على إدارة البلاد. واستمرت العلاقات جيدة بين الطرفين، حتى أسند الحسن الإدريسي إدارة البلاد إلى الملك عبد العزيز عام ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠م، وتوحدت جازان مع بقية البلاد السعودية.

وسعى حاكم الأردن عبد الله بن الحسين، إلى احتضان عدد من الفارين من المخلاف، وخطط معهم للثورة ضد الحكم السعودي، بالتنسيق مع حامد بن رفاعة للتمرد شمالي الحجاز. واتصلوا بالحسن الإدريسي، وحرصوه على التمرد. وبدأ الحسن بالعمل على الثورة متجاهلاً تحذير الملك عبد العزيز له، وحاصر مندوب الملك في جازان في ٥ رجب ١٣٥١ هـ، ثم استسلمت الحامية السعودية له، ثم نقلوا إلى صيبا تحت الإقامة الجبرية. وأرسل الملك عبد العزيز قواته إلى جازان، بقيادة حمد بن سليمان وخالد القرقي؛ للتفاهم مع الإدريسي، قبل دخوله جازان، ولما علم بما حصل من تطورات في جازان، عزز القوة المرسله بقوة أخرى. ونجحت قوات الملك بالسيطرة على جازان. ثم أرسل المزيد من السرايا. ثم بعث جيشاً كبيراً بقيادة عبد العزيز بن جلوي، الذي أصبح القائد العام للقوات السعودية بالمنطقة، والذي تم على يديه إنهاء حركة الإدريسي التمردية. وهرب الإدريسي وعدد من مؤيديه إلى اليمن. وعفا الملك عن الجميع، وعاد الفارون من جازان إلى بلدانهم. أما الإدريسي وعائلته؛ فقد وافق الملك عبد العزيز على طلب الإمام يحيى بأن يبقوا في اليمن. وخصص الملك لهم مرتبات سخية. وكان ذلك عام ١٣٥١ هـ / ١٩٣٣ م.

المحاضرة العاشرة

١- مشكلة المعارضين من الإخوان ٢- حركة ابن رفاعة

مشكلة المعارضين من الإخوان:

١- بداية المشكلة وتطورها:

رغم الدور العام الذي قامت به حركة الإخوان في توحيد البلاد السعودية، إلا أن بعض الإخوان لم يفهموا الدين فهما صحيحاً، فغلوا في نظرتهم إلى الحاضرة وإلى من لم يستوطن الهجر من البادية؛ فراحوا يسألون الناس في بلدانهم عن أصول الدين، ويشكون في إيمان غيرهم، وأباحوا الاعتداء عليهم. وأدرك الملك عبد العزيز خطورة مثل هذا الأمر؛ فاستفتى العلماء، الذين أفتوا عام ١٣٣٧ هـ، بأن ذلك لا يتفق مع أصول الدين الحنيف. وبعدها تحسن الوضع نسبياً. وبعد توحيد الحجاز، ظهرت بواد الخلاف بين الملك عبد العزيز وبعض قادة الإخوان؛ خاصة فيصل الدويش، وسلطان بن بجاد، وضيدان بن حثلين. والظاهر أن السبب مرتبط باستخدام الملك مخترعات حديثة كالبرقيات والهاتف؛ إضافة إلى أمور أخرى. وقد تكون هذه الأسباب المعلنة، ليست هي الأسباب الهامة للخلاف.

برز خلال العمليات العسكرية للإخوان في الحجاز عام ١٣٤٣ هـ، سلطان بن بجاد من حيث كثرة أتباعه، ونظراً لمساهمته أيضاً في معركة تربة. ومع ذلك أسندت أمور مكة بعد دخولها إلى خالد بن لؤي، لا إلى ابن بجاد، الذي عاد إلى نجد قبل استسلام جدة. أما فيصل الدويش فلم يلتحق بقوات الملك إلا بعد دخولها الطائف ومكة، إذ كان مشغولاً في الجبهة العراقية. ولذلك سعى ليكون تسليم المدينة المنورة على يديه، لينال شهرة وسمعة أسوة بابن بجاد، ولما طال أمر حصارها، عاد إلى نجد. وربما اعتقد الدويش وابن بجاد أنهما لم يحصلوا على ما يستحقان من مكاسب. أما ابن حثلين فلم يشارك في عمليات الحجاز، وأمره الملك بالعودة إلى مركز عمله، واعتبر ذلك لعدم ثقة الملك به.

ولما وقع الملك اتفاقية بحرة عام ١٣٤٤ هـ، مع مفوض بريطانيا كلايتون بصفته نائباً عن حكومة العراق، وحددت الحدود بين السعودية والعراق، ونصت على ألا تعتدي قوات إحداهما على أراضي الأخرى. ثم وقعت اتفاقية حدة بين السعودية وشرق الأردن بنفس المضمون؛ اعتقد بعض قادة الإخوان أن ذلك يعني إغلاق الطرق التي اعتادوا عبورها نحو العراق وشرق الأردن للحصول على الغنائم، والقيام بواجب الغزو الديني. وجاءت حادثة المحمل المصري عام ١٣٤٤ هـ، التي راح ضحيتها أربعون من الإخوان. وقام الملك بحراسة الحجاج المصريين حتى أدوا مناسكهم وعادوا لأوطانهم بسلام. ثم دفع الملك ديات القتلى من الإخوان، وعرضهم عن إبلهم التي قتل. كل ذلك أزم الخلاف بين بعض قادة الإخوان والملك، الذين اجتمعوا في الأرواوية مقر فيصل الدويش، وتعاهدوا بأن يكونوا صفاً واحداً في وجه من يخالفهم الرأي، وأعلنوا مآخذهم على سياسة الملك عبد العزيز. وسعى الملك لاستمالتهم وتجنب المواجهة معهم. ودعا الملك إلى مؤتمر في رجب عام ١٣٤٥ هـ، وحضره أكثر زعماء الإخوان، ولم يحضره سلطان بن بجاد. وأوضح الملك في بداية المؤتمر تمسكه بدين الله. وانتهى المؤتمر باستفتاء العلماء حول مآخذ بعض الإخوان؛ فافتوا بتوقفهم في مسألة البرق والهاتف، وأنكروا بعض ما أنكره الإخوان كالمكوس. وربطوا قضية الجهاد بالإمام.

ورغم أهمية الفتوى السابقة المعنوية بالنسبة للملك عبد العزيز، إلا أنها لم تغير موقف الذين عارضوه. واتضح ذلك عندما بنت الحكومة العراقية مخفرا عند حدودها مع السعودية خلافا لما نص عليه اتفاق العقير عام ١٣٤١هـ. وقبل أن يصل الملك إلى اتفاق بشأنه مع السلطات البريطانية، وفي عام ١٣٤٦هـ، هاجم فيصل الدويش باتباعه الحامية العراقية في المخفر وقتلوا بعض أفرادها، وهدموا البناء. كان مركز الدويش الأقرب إلى الحدود العراقية، وربما أراد إحراج الملك بإظهار عجزه عن حفظ الأمن في البلاد التي تحت يده. واحتج البريطانيون لدى الملك على فعل الدويش، لكن الملك أخبرهم أنهم هم الذين بدأوا بالشر، وأن الدويش لم يفعل ما فعل بأمر من الملك.

واستمر الدويش عرضة لملاحقة الطائرات البريطانية بسبب استمراره بالإغارة على الأراضي العراقية. وازداد نشاط المعارضين للملك، وتجمعوا في مكان بين الزلفي وعنيزة يرسمون خططهم المستقبلية. وحضر الملك إلى بريدة، ليراقب الوضع عن كثب. ولما اقترب موسم الحج، الذي يتطلب وجوده في الحجاز، وهم لا يزالون في مكانهم؛ فاضطر إلى إيفاد الأمير عبد العزيز بن مساعد حاملا معه ختمه ومفوضا بتلبية مطالبهم. وأخبرهم أنه سيبحث مع ممثل بريطاني في جدة، كل مشكلات الحدود. ولما بحث الملك مشكلة المخافر مع ممثل بريطانيا في جدة، وأصرت بريطانيا على إقامتها. وعاد الملك من موسم الحج، وهو أكثر تصميمًا على حل مشكلة أولئك المعارضين من الإخوان.

واعتقد الملك بحكمته، ولضمان وقوف أتباعه إلى جانبه، خاصة وأن معارضيه يعلنون انطلاقهم من المبادئ التي نادى بها الملك منذ بداية مسيرة توحيد البلاد، وأساسها الجهاد في سبيل الله. وحتى يبرهن للجميع أنه لم يترك وسيلة لحل الخلاف مع معارضيه إلا واتباعها؛ ولذلك كله دعا الملك إلى مؤتمر في الرياض، ودعا إليه العلماء وأمرء الحاضرة وزعماء الإخوان والقبائل. وحرص على حضور المعارضين له بالذات؛ لإقامة الحجة عليهم أمام الحضور، والحصول على تجديد بيعتهم له. ولم يحضر زعماء المعارضة المؤتمر (ابن بجاد والدويش وابن حثلين)، رغم تأجيل انعقاده أيام على أمل حضورهم، وانتدب الدويش ابنه عبد العزيز. افتتح المؤتمر الذي عرف باسم (الجمعية العمومية) في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٦هـ، وحضره منات من الشخصيات الممثلة للآلاف التي أجابت الدعوة. ونظم جلوس الجميع بدقة، فكان أفراد الأسرة الحاكمة عن يمين الملك وشماله، والعلماء أمامه في الصف الأول، ثم أمراء الحاضرة خلفهم يمينًا وشمالًا، وزعماء الإخوان والقبائل في الوسط بين أولئك الأمراء.

افتتح الملك المؤتمر، وعرض تنازله عن الحكم لأحد أفراد أسرته، مما ألهب حماس الحاضرين وإعلانهم التأييد لسياسته. ثم وجه كلامه إلى العلماء متسانلا إذا كانت أعماله مخالفة للشرع، فأجابوه بالنفي. وتكلم بعض المؤيدين من زعماء الإخوان والقبائل، ومن المسائل التي أثاروها: البرقيات هل هي سحر أم لا؟ والمخافر التي بنيت على مراعي المسلمين، أيجوز السكوت عنها شرعا؟ أيجوز توقف الجهاد في سبيل الله؟ فافتي العلماء بالتوقف في مسألة البرقيات، وأن المخافر ضرر واضح على الملك وإزلاته، وأما الجهاد فواجب لكنه متروك لولي الأمر. وجدد الجميع البيعة للملك في نهاية المؤتمر. وكأنه حصل على الضوء الأخضر لمواجهة المعارضين له.

معركة السبلة (٩ شوال ١٣٤٧هـ / ٣٠ - ٣ - ١٩٢٩م):

رغم النصر السياسي الذي حققه الملك عبد العزيز في مؤتمر الجمعية العمومية على معارضيه من زعماء الإخوان، فقد استمروا على موقفهم. وأعلنوا أنهم القاتمون حقا بأمر الدين والجهاد. والحواء على الملك ليسمح لهم بالجهاد خارج الحدود الشمالية. وقام ابن حثلين بالهجوم على بعض القبائل العراقية. وترى الملك قبل اتخاذ قراره بشأنهم، مما دفع سلطان بن بجاد و فيصل الدويش على التمرد، وتجمعوا باتباعه في الأوطاء، وأخذوا يغيرون على بعض القبائل التابعة للملك عبد العزيز؛ حتى أنهم صادروا إبلا لتجار من بريدة، وقتلوا أصحابها. وبالتالي أصبحت أعمالهم موجهة إلى داخل البلاد السعودية مثلما هي خارجها.

وقرر الملك المواجهة معهم، وأمر أتباعه بالتوجه إلى القصيم، وحضر الملك إلى بريدة في رمضان، وحتى ١٠ شوال تجمع لديه أعدادا كبيرة من الحاضرة والبادية والإخوان الموالين له. وسار بهم إلى النبقية، التي وصلها ابنه سعود بالآلاف من أهل العارض. وزحف الملك بهم جميعا إلى الزلفي. وتجمع المعارضون له في السبلة القريبة من الزلفي. وبدا الطرفان غير متحمسين للحرب، وتبادلا الاتصالات وإرسال الوفود، دون نتيجة. فتحرك الملك حتى نزل قرب خصومه. حينها بعث إليه ابن بجاد مندوبا ليقاوضه؛ لكن الملك أصر على رضوخ المعتدين لحكم الشرع، وحضر الدويش نفسه إلى الملك وتناقش معه، وعاد إلى معسكره ليقنع ابن بجاد بتلبية مطالب الملك، وأنذره الملك بالحرب إذا لم يصله الجواب قبل الصباح، وحل الصباح ولم ترد إجابة الإخوان. وأعد الملك قواته للهجوم، ولم تمر نصف ساعة على بدء القتال، حتى أخذ خصومه بالانهزام. وتعقبهم خيالة الملك قليلا، لكن الملك أمرهم بالعودة، فلم يرد قتلهم وهم مدبرون. وقد أصيب الدويش برصاصة في خصره، فحملة أحد أتباعه إلى الأوطاء، وتوجه ابن بجاد وفلوله جنوبا. وهكذا

انتهت معركة السبلة المشهورة التي وقعت في ١٩ شوال ١٣٤٧هـ / ٣٠ - ٣ - ١٩٢٩م. وكانت معركة السبلة أول مواجهة عسكرية بين الملك عبد العزيز والإخوان، خاضها بعد استنفاده للحلول السلمية، ونتج عنها أن فقد خصومه الهالة التي كانت تحيط بهم قبل المعركة.

نهاية مشكلة المعارضين بعد السبلة:

اتجه الملك بقواته بعد السبلة إلى الأوطاية، ولما اقترب منها أتى إليه فيصل الدويش محمولا على نعش، فأمر طبيبه الخاص بمعالجته. ولما قابله وبخه على فعله، ولما طلب العفو من الملك، عفا عنه. وربما هذا الذي شجع ابن بجاد مع عدد من كبار قومه، بالقدوم إلى الملك طالبين العفو، لكن الملك قبض عليه وأمر بسجنه، هو ومن ارتكبوا ذنبا لا يغتفر بحقه. ثم أرسل ابنه عبد الله وأخاه عبد الرحمن إلى الغطف، هجرة ابن بجاد، فهدماها. ومضى الملك باتباعه إلى القصيم حيث اعتقل عددا من الوعاظ الذين حرضوا الإخوان على التمرد، وغيرهم من الزعماء، الذين أرسلهم إلى سجن الرياض. لم تنته مشكلة الإخوان بانتصار الملك عبد العزيز في السبلة، وقد أمر الملك أمراء بعض المناطق، أن يأخذوا السلاح والخيول والجيش من القبائل التي لم تقف معه في السبلة.

أما ابن حثلين، فرغم اتفاقه مع الدويش وابن بجاد في موضوع إزالة المخافر التي بنيت على الحدود مع العراق؛ فقد تبرأ في رسالة بعثها إلى الملك من أعمالهم ضد أبناء البلاد. ولما بعث إليه الملك لتوضيح موقفه، فتوسط ضيدان عند الأمير عبد الله بن جلوي كي يبعث إليه الملك ما يطمئنه. وأخبره ابن جلوي أن ابنه فهد سيخرج بقوات مستعدة لأي توجيه من الملك. وكان نايف بن حثلين منافسا لضيدان، ويقود فئة من العجمان مع جيش فهد. ولما وصل فهد بجيشه قريبا من الصرار، مركز ضيدان، حدث مراسلات بين الجانبين، وقتل ضيدان قبل المعركة على يد حرس فهد. واشتد القتال؛ فانضم نايف بن حثلين إلى جماعة ضيدان، وقتل فهد، وانهزمت قواته، واستولى المنتصرون على ما في مخيمه من خيل ومؤن. وذلك في ١٩ ذي القعدة ١٣٤٧هـ.

وتوقع نايف بن حثلين وأتباعه، أن ابن جلوي سيعاقبهم على فعلتهم ومقتل ابنه فهد؛ فاتجه بجماعته إلى الوفراء. ورفع ما حدث قرب الصرار من معنويات المعارضين للملك عبد العزيز. وتجمع لدى نايف فئات من مطير، كما وصل إليه فرحان بن مشهور العنزي حليف ابن بجاد. كما أن بعض المؤيدين لابن بجاد من عتبية، ساءهم عفو الملك عن فيصل الدويش ومعاقبته لابن بجاد، وتهديم هجرة الغطف، لذلك كله نشطوا في معارضة الملك. بل إن الدويش نفسه انضم إلى المعارضين في الوفراء. سعى الملك عبد العزيز لدى بريطانيا لإلزام البلدان الواقعة تحت نفوذها (العراق والكويت) بعدم مساعدة المتمردين عليه أو إيوائهم، فالتزمت بذلك. وحشد الملك أتباعه، خاصة من عتبية، وأمرهم بالاستعداد لمحاربة المتمردين شمال شرقي البلاد، وأمرهم بمقابلته في الدوادمي. وحدث تبادل للغارات ومعارك بين المعارضين وأتباع الملك، نتج عن إحداها مقتل عبد العزيز بن فيصل الدويش. أما مقعد الدهينة، فبعد تقلب مواقفه تجاه الملك عبد العزيز، واستقراره في عالية نجد، أرسل الملك عدة سرايا لمواجهته، فاستسلم كثير من أتباعه، واضطر هو إلى الهرب إلى العراق.

ولما حقق الملك الكثير من الانتصارات على أعدائه؛ ترأس مؤتمرا في الشعراء، مستهل جمادى الأولى عام ١٣٤٨هـ. وتقرر في المؤتمر معاقبة من أخلوا بالأمن، وقتال المتمردين شمال شرق البلاد. وتجمع لدى الملك قوات كبيرة في الشوكي. ولما علم فيصل الدويش بعث إلى الملك طالبا الأمان، فوعده الملك بالأمان رغم ضعف موقف فيصل. ولما رأى أتباع الدويش أن الأراضي الكويتية والعراقية لن يسمح لهم بدخولها أو الإقامة فيها، وكذلك استعدادات الملك عبد العزيز العسكرية؛ أخذوا ينفضون عن زعيمهم، ويطلبون عفو الملك. وفي ٢٨ رجب ١٣٤٨هـ، تعرض ابن الدويش لهجوم مباغت قام به عبد المحسن الفرم بالتعاون مع مشعل بن طوالة وعجمي بن سويط، فاستولوا على ما لديه، واضطروه إلى الذهاب إلى الجهراء، ثم استسلم هو وجاسر بن لامي ونايف بن حثلين للسلطات البريطانية في الكويت، التي نقلتهم إلى شط العرب.

ولما تمكن الملك عبد العزيز من القضاء على فلول المتمردين شمال شرقي البلاد؛ تباحث مع بريطانيا بشأن تسليم الدويش ومن معه، وتقرر أن يستلمهم مقابل الإبقاء على حياتهم، وأن تطارد القوات البريطانية فلول المتمردين الموجودين على حدود العراق ليعودوا إلى نجد، وأن يسلم الملك عبد العزيز ما نهبه الدويش وجماعته من أهل الكويت والعراق. وسلم هؤلاء إلى الملك عبد العزيز في شعبان ١٣٤٨هـ، ونقلوا إلى سجن الرياض. وهكذا انتهت حركة المتمردين من الإخوان التي كلفت الشيء الكثير، وعاد الأمن إلى ربوع البلاد.

٢- حركة ابن رفاة وملابساتها:

استاء الملك عبد الله بن الحسين من النجاح الذ حققه الملك عبد العزيز، خصوصاً في الحجاز، فاتصل بحسين الدباغ، الذي فر من الحجاز بعد دخولها تحت الحكم السعودي؛ وشجعه على تأليف حزب ضد هذا الحكم، ووعد بالتأييد والدعم. وأسس الحزب في مصر وتآلف من عدد من الحجازيين، وترأسه طاهر الدباغ. وكان من أعضائه حامد بن رفاة، أحد زعماء قبيلة بلي، الذي سبق أن قام بتمرد شمالي الحجاز عام ١٣٤٧هـ، ففشل وفر إلى مصر. وخطط الحزب ليقوم ابن رفاة بحركة في شمالي الحجاز، بالترتيب مع الحسن الإدريسي ليعن الثورة في جازان. وفشلت محاولة الإدريسي - وفق ما أشرنا سابقاً -

أما حامد بن رفاة، فقد حضر إلى عمان عام ١٣٥٠هـ، ومنح الجنسية الأردنية. وعاد إلى مصر ليعيد العدة مع رجال قبيلته للتمرد شمالي الحجاز، وانتقل بهم حتى وصلو إلى الشريح جنوب غربي العقبة داخل الأراضي السعودية. وانتظروا هناك أكثر من شهر، حيث كانت تأتيهم الأسلحة والمؤن من الأردن. واستعد الملك عبد العزيز لمواجهة هذه الحركة، وأرسل السرايا إلى شمال الحجاز. واتصل بالحكومة البريطانية يطلب التقيد بمعاهدة حدة، فأصدر ممثلها في الأردن بياناً أكد فيه أنه سيمنع أي مساعدة للمناوين للملك عبد العزيز. وأصدر ملك الأردن بياناً مشابهاً. ولم يسارع الملك عبد العزيز إلى مهاجمة ابن رفاة، ليعرف أعوانه داخل البلاد، وحتى لا يهرب خارجها. فلما اطمأن إلى الموقف أعز إلى كبار القبائل في شمال الحجاز للاتصال بابن رفاة، وإعلان تأييدهم له في محاولة لاستدراجه، ونجحت الخطة، فتقدم ابن رفاة بمن معه حتى اقترب من جبل شار، الذي يبعد عن ضبا حوالي خمسين كيلاً. وكان الملك قد وجه قواته للقضاء عليه ومن معه، وكان على رأس قوات الملك، عبد الله بن عقيل أمير الجوف حينذاك. ووضع الملك لهم الخطة بحيث يحاصرونهم من كل جانب، وبالفعل أحاطت بهم القوات في جبل شار في ٢٦ ربيع الأول عام ١٣٥١هـ. ولم تنجح محاولاتهم بالهروب، فقتلوا عليهم. ولم ينج من الأربع مئة مقاتل الذين كانوا في جبل شار إلا حوالي ثلاثين، طوردوا لاحقاً حتى قضي عليهم. وبذلك انتهت هذه الحركة.

المحاضرة الحادية عشر

علاقات الملك عبد العزيز بالقوى المحيطة:

العلاقات مع الكويت - العلاقات مع العراق - العلاقات مع الأردن

١- العلاقات مع الكويت :

أقام الإمام عبد الرحمن الفيصل وأسرته في الكويت، بعد نهاية الدولة السعودية الثانية - كما أشرنا سابقاً. ولما وصل مبارك بن صباح إلى إمارة الكويت توطدت علاقته بالأسرة السعودية، خاصة عبد العزيز بن عبد الرحمن (الملك). ثم أصبحت متذبذبة مع تغير الظروف. وكان من أكبر أسباب ذلك التذبذب اتباعه ما اعتقد أنه حفظ للتوازن بين القوى المتنافسة في المنطقة، وتسرب نوع من الغيرة إلى نفسه نتيجة نجاح الملك عبد العزيز. اتحدت مصالح آل سعود ومبارك الصباح لمواجهة خصمهما المشترك، عبد العزيز بن رشيد، فخرجاً لحربه في الصيف عام ١٣١٨هـ. ولما حاصر ابن رشيد الكويت؛ فساعد مبارك الصباح الملك عبد العزيز في انطلاقته إلى نجد عام ١٣١٩هـ؛ أملاً في تخفيف الحصار أو إزالته. غير أن نجاح الملك أمام ابن رشيد والقوات العثمانية عام ١٣٢٢هـ، أقلق أمير الكويت، لدرجة أنه منع الملك من شراء أسلحة وذخائر من الكويت في السنة ذاتها. ثم اتفق مع ابن رشيد في السنة التالية على إنهاء حالة العداء بينهما. وفي عام ١٣٢٨هـ وقف الملك عبد العزيز مع مبارك ضد زعمي المنتفق والظفير. ولما نجح الملك عام ١٣٣١هـ، بتوحيد الأحساء والقطيف مع بلاده، وتقوى بها عسكرياً واقتصادياً؛ حيث أصبح يعتمد على موانئ خاصة به لاستيراد ما يحتاج إليه؛ وامتداد الأراضي التابعة للأحساء والقطيف، في عهدي الدولتين السعوديتين الأولى والثانية، إلى الأراضي التابعة للكويت من وجهة نظر أميرها حينذاك؛ كل ذلك أثار مخاوف جديدة لدى مبارك الصباح.

وحاول إفشال المفاوضات بين الملك والدولة العثمانية عام ١٣٣٢هـ. لكن المفاوضات انتهت بوضع الأحساء والقطيف تحت الحكم السعودي. ولما اختلف الملك مع قبيلة العجمان، على أثر موقفها في معركة جراب عام

١٣٣٣هـ، وتطورت المشكلة بعد قيام العجمان بنهب أموالا لأهل الكويت؛ فاتفق الملك مع مبارك ضد العجمان، لكنه لما هاجمها في كثران هزمته. وقبل مبارك لجوء العجمان للكويت مخالفا ما اتفق عليه مع الملك عبد العزيز. وبعد خمسة شهور على كثران مات مبارك الصباح وخلفه ابنه جابر، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل علاقة الملك بالكويت.

انتهج مبارك الصباح سياسة ودية تجاه الملك عبد العزيز، وطلب من العجمان مغادرة الكويت؛ وذلك بسبب الصداقة الشخصية بينهما، إضافة لتوقيع الملك معاهدة دارين مع بريطانيا في صفر عام ١٣٣٤هـ، وتعهدها فيها بعدم الاعتداء على بلدان الخليج التي تحت الحماية البريطانية، ومنها الكويت. وزار الملك الكويت في محرم ١٣٣٥هـ. وتوفي جابر في العام نفسه، فخلفه أخوه سالم، الذي توترت علاقاته بالملك بدرجة كبيرة. لم يكن سالم موافقا لرأي أخيه الذي أخرج العجمان من الكويت؛ لهذا استأنف العجمان نشاطهم عبر الكويت ضد أتباع الملك عبد العزيز. ثم حدثت مشكلة تهريب المؤن للأتراك عبر الكويت، مما أدى إلى حصار بريطاني أضر بالتجار النجديين. وقد حلت المشكلة الأولى من قبل بريطانيا، التي ضمنت عدم قيام العجمان بعدوان على أراضي تابعة للملك، ثم يعودتهم إلى ديارهم موالين له. وانتهت المشكلة الثانية بانتهاج الحرب العالمية الأولى. وبقيت المشكلة الأهم؛ وهي مشكلة الحدود.

مشكلة الحدود بين الكويت والسعودية: اعتمد سالم الصباح في قضية حدود بلاده مع السعودية، على اتفاقية بين بريطانيا والدولة العثمانية عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م، والتي أعطت الكويت أراضي لم تكن لها في عهدي الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. والماخذ على تلك الاتفاقية كثيرة منها: أنها لم تصدق من الجانبين، وبطلان مفعولها القانوني بنشوب الحرب بينهما، وأن الاتفاقية جاءت بعد سيطرة الملك على الأحساء والقطيف، وأن بريطانيا بموجب معاهدة دارين اعترفت للملك بنفوذه عليهما وتوابعهما من البلدان التي كانت لأسلافه. (أنظر الكتاب المقرر ص ٢٥٠-٢٥٢). وأراد الأمير سالم أن يثبت عمليا حدود إمارته؛ فحاول بناء مركز له في بلبول، التي تبعد عن جبيل تسعين ميلا. وكتب إليه الملك عبد العزيز موضحا أن المكان تابعا له؛ لكن الأمير أصر على أنه من أراضيه. ولم يمنعه إلا الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، الذي نهاه عن البناء؛ فامتثل لطلبه.

ولما أخذت عشائر قبيلة مطير تستقر في هجر ضمن حركة الإخوان، وأقام تريحيب بن شقير مع جماعته هجرة في قرية العليا، وهي من مضارب قبيلته حينذاك؛ فغضب الأمير سالم، وحذره من الإقامة فيها، فرفض تحذيره. ولما لم يتلق إجابة سريعة من الوكيل السياسي البريطاني في الكويت؛ أرسل قوة لإرغام ابن شقير على الرحيل. واستند ابن شقير بزعم مطير فيصل الدويش، الذي هب لنجدته بألفين من أتباعه. وكان تحركه فيما يظهر بموافقة الملك الذي أمره بالدفاع فقط. وهاجم الدويش القوة الكويتية وقتل كثيرا من أفرادها، وغنم مما كان معها. وأرسل خمس ما غنم إلى الملك، الذي أظهر عدم رضاه عما قام به، وأمره أن يبقى جميع ما عاد به من الكويت عند قاضي الأرطاوية حتى تاتي التوجيهات بشأنه.

أظهر الملك عبد العزيز أسفه للأمير سالم، بسبب ما قام به الدويش، ورد ما أخذ الدويش من أهل الكويت إلى الأمير؛ لكنه في الوقت نفسه لام الأمير على تدخله في قرية وعدم اتصاله بالملك قبل الحادثة، وطلب منه التوقيع على وثيقة بأنها ليست تابعة له. وأشارت بريطانيا على الأمير سالم أن يكتب إلى الملك كتابا لبقا؛ يعتذر فيه عن التوقيع على وثيقة لا ضرورة لها، ويعدده بالأ يصدر منه أية إساءة مستقبلًا. وغضب الملك عبد العزيز من موقف الأمير سالم، وطلب تدخل بريطانيا لحل مشكلة الحدود بينهما؛ وكذلك طلب أمير الكويت. ورغم أن الطرفين قبلتا بريطانيا حكما بينهما، فقد اتخذ أمير الكويت خطوات عسكرية، وجمع لديه خصوم الملك عبد العزيز، وكان في مقدمتهم ضاري بن طوالة، رئيس الأسلم من شمر، بتوجيه من ابن رشيد. وعلم الملك أن خصومه سيهاجمون أتباعه في قرية؛ فأمر الدويش بنجدهم. واجتمعت قوات الكويت وابن طوالة في الجهراء، وتوجهت صوب قرية، لكنها عادت بعد خلاف بين قائدتها دعيح وضاري. أما الدويش فواصل زحفه حتى وصل الصبيحية. وأمام هذا الوضع خرج الأمير سالم بقوة من الكويت إلى الجهراء، وتولى القيادة هناك بنفسه. واندفع الدويش مبادرا بالهجوم على خصومه الذين تحصنوا في

الجهراء، وتمكن أتباعه من دخولها، ومزق شمل خصومهم، وفر ابن طوالة وآخرون إلى مدينة الكويت، ولجأ الأمير سالم وحوالي الألف من أتباعه إلى القصر الأحمر في الجهراء. وحاصره الدويش، حتى وصلتهم النجدة من الكويت. وتفاوض الأمير سالم والدويش، وطلب الأمير سالم انسحاب الدويش إلى الصبيحية، ليذهب هو إلى مدينة الكويت للتشاور مع جماعته. وقبل الدويش ذلك، وانسحب إلى الصبيحية. وأرسل بعد أيام وفدا إلى الأمير سالم، الذي تعلل بمرضه وسوف في مقابلته، إذ كان يتفاوض مع بريطانيا لإنقاذه من مأزقه. ولما وعدته بريطانيا بالدعم؛ قابل الوفد بحضور ممثل بريطانيا، الذي سلم الوفد رسالة إلى الدويش، تضمنت أن أي اعتداء على الكويت بمثابة اعتداء على بريطانيا ذاتها. وتبع ذلك إرسال سفينتين بريطانيتين إلى ساحل الكويت، مع تعزيزات عسكرية أخرى. وحلقت طائرة بريطانية فوق معسكر الدويش في الصبيحية، وألقت منشورات تحذيرية، مما اضطر الدويش إلى

الانسحاب؛ خصوصاً أن البريطانيين أخبروه بأن ما يقوم به لا يتفق مع سياسة الملك عبد العزيز. وتعهد الملك عبد العزيز لبريطانيا بعد معركة الجبراء، ألا يقوم الإخوان بمهاجمة الكويت، مقابل تعهد أمير الكويت بعدم التآمر مع خصوم الملك، وذلك إلى أن تستطیع بريطانيا حل المشكلة بين الطرفين. لكن تأمر سالم الصباح مع خصوم الملك لم يتوقف رغم تعهده.

وتوسط حاكم المحمرة الشيخ خزعل، بموافقة بريطانيا، بين الملك عبد العزيز وسالم الصباح. وذهب وفد برئاسة الشيخ أحمد الجابر، الذي كان صديقاً حميماً للملك. وبينما كان أعضاء الوفد يتفاوضون مع الملك، بلغهم خبر وفاة الأمير سالم؛ وحينها مزق الملك ما كان أمامه من أوراق المفاوضات، وقال للأمير أحمد: ما دام حكم الكويت قد آل إليك فلا داعي لمكاتبات بيننا؛ فأنت مفوض عني فيما تراه. ولما تولى الأمير أحمد الجابر الصباح حكم الكويت، مهد الطريق لحل المشكلات بين بلاده وبلاد الملك عبد العزيز. وانعقد مؤتمر في العقير برئاسة بيرسي كوكس، المندوب السامي البريطاني في العراق، للتحكيم بين الجانبين. وتوصل المؤتمر إلى تعيين الحدود بينهما. ووقعت اتفاقية بهذا الشأن في ١٣ ربيع الثاني عام ١٣٤١ هـ / ١٢-٢-١٩٢٢ م. وبعد عشرين عاماً من ذلك التاريخ وقع البلدان على اتفاقية صداقة وحسن جوار، واتفاقية تجارية، واتفاقية تسليم مجرمين.

٢- العلاقات مع العراق :

اعتادت بعض القبائل النجدية النزوح إلى العراق، لظروف متعددة. إضافة إلى العلاقات التجارية التي ربطت تجار نجد بالعراق، واستيراد سكان جبل شمر بعض الأطعمة من العراق. إضافة إلى قوافل الحج العراقية التي كانت تتمتع بحماية إمارة جبل شمر. ولما لم يكن بين نجد والعراق أي حدود سياسية فقد اعتادت القبائل على التنقل بين البلدين دون عوائق.

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى، وزال الحكم العثماني عن العراق، وحل محله النفوذ البريطاني. ثم وصول فيصل بن الحسين إلى حكم العراق عام ١٣٣٩ هـ، وكان والده ملك الحجاز حينذاك، وتأثرت علاقات العراق مع نجد في ضوء توتر علاقات الملك عبد العزيز بالملك حسين. هذا إلى جانب النزاع القائم بين القبائل التي تقطن المناطق الحدودية بين البلدين. ولما أنهى الملك عبد العزيز إمارة جبل شمر عام ١٣٤٠ هـ؛ انتقلت فئات من شمر نجد إلى العراق، وأخذت تغير على القبائل التابعة للملك عبد العزيز. ثم عينت حكومة العراق يوسف السعدون، زعيم المنتفق، رئيساً للهجانة على حدودها الجنوبية، مما أغضب حمود بن سويع، زعيم ظفير، الذي قدم إلى الملك عبد العزيز معلناً ولائه له، ومرحباً بأداء الزكاة إليه؛ لكن رئيس أحد أفخاذ هذه القبيلة عارضه، وتحالف مع ابن طوالة لشن غارات على أتباع الملك.

ورد الملك على تلك الغارات بإرسال فيصل الدويش إلى حفر الباطن ليدافع عن القبائل الموالية للملك. وهاجم الدويش ابن طوالة ومن تحالف معه، وأضر بهم، وهب يوسف السعدون لنجدتهم، دون جدوى. وقامت الطائرات البريطانية بمهاجمة الدويش وأتباعه حتى انسحبوا إلى نجد. ونتج عن اتصال الملك عبد العزيز بالمندوب السامي البريطاني في العراق، بيرسي كوكس، إلى عقد مؤتمر في المحمرة للنظر في المشكلات بين الملك عبد العزيز والحكومة العراقية. وتوصل الطرفان إلى معاهدة مبدئية، اشتملت على أمور هامة، منها تحديد تبعية بعض القبائل لكل منهما. لكن الملك عبد العزيز لم يصادق عليها؛ لأن بعض بنودها كانت مخالفة لما أوصى به وفده إلى المؤتمر.

ولما انعقد مؤتمر العقير (١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م) الذي بحث المشكلات الحدودية م بين نجد وجيرانها في الخليج، انتهى المؤتمر إلى حل المشكلات القائمة بين نجد والعراق بتعيين الحدود بينهما، كما جعل بينهما منطقة محايدة ترعى فيها قبائلهما بحرية، على ألا يقيم أي منهما مخافر أو بنايات فيها. ورغم ذلك استمرت غارات القبائل، خاصة من شمر، على قبائل وقوافل تجارية تابعة للملك عبد العزيز. وطالب الملك حكومة العراق رد ما نهبت تلك القبائل من أتباعه. ولما تكررت حوادث الاعتداء على الحدود بين الجانبين؛ دعت الحكومة البريطانية إلى عقد مؤتمر في الكويت لبحث ما بقي من مشكلات بين نجد من جهة وكل من: العراق، والأردن، والحجاز من جهة أخرى. ووافق الملك عبد العزيز بشرط أن يفاوض وفده كل وفد من الأقطار الثلاثة على حدة.

وبدا مؤتمر الكويت في ٩ جمادى الأولى ١٣٤٢ هـ / ١٧-١٢-١٩٢٣ م. وقدم وفد نجد مطالبه من حكومة العراق، التي تضمنت عودة شمر نجد، وطرد القبائل النجدية الملتجئة للعراق التي تعادي الملك، ورد ما نهبت تلك القبائل، ومن تحالف معها من قبائل العراق، من أتباع الملك بعد مؤتمر العقير. وكاد الاتفاق يتم لولا اشتراط الوفد العراقي إبرام الاتفاق إلى حين اتفاق الملك عبد العزيز مع الملك حسين ملك الحجاز. فرفض ذلك الوفد النجدي.

وتواصلت المباحثات بين الجانبين دون نتيجة. واستمرت غارات قبائل العراق على قبائل تابعة للملك عبد العزيز؛ فأرسل الملك عبد العزيز إلى رئيس المؤتمر (نوكس) لوضع حد لتلك الغارات، أو عدم التعرض له إن حاول رد العدوان بنفسه. فلم يأت ردًا سريعًا، مما حدا بفيصل الدويش إلى التوجه شمالًا ومهاجمة بعض القبائل حول الديوانية. وكان الوفد العراقي في طريقه إلى الكويت لمواصلة المفاوضات، فأمرت حكومته بالعودة إلى بغداد. وبالتالي لم يتوصل مؤتمر الكويت إلى اتفاق بين نجد والعراق. واستمر الوضع على حاله بين البلدين حتى وقع الجانبان على اتفاقية بحرة في ١٤ ربيع الثاني ١٣٤٤هـ/ ٣١ - ١٠ - ١٩٢٥ م. ووقعها الملك عن بلاده، وكلايتون مفوضًا عن الحكومة البريطانية ونائبًا عن الحكومة العراقية. ولما أنهى الملك عبد العزيز تمرد الإخوان الذين تسببوا بمشكلات بين نجد والعراق، وفي عام ١٣٤٨هـ، تقابل الملك عبد العزيز مع الملك فيصل على ظهر باخرة بريطانية في الخليج، بحضور المندوب السامي البريطاني، وعمقا أوامر الألفه بينهما. ثم وقعت بين الجانبين عام ١٣٤٩هـ معاهدة صداقة وحسن جوار، ووقعها عن الجانب السعودي فيصل بن عبد العزيز نائب والده في الحجاز، ونوري السعيد رئيس وزراء العراق عن الجانب العراقي.

٣- العلاقات مع الأردن :

كان شرق الأردن تابعًا لولاية دمشق زمن العثمانيين، ولما احتلت فرنسا سوريا أخرجت فيصل بن الحسين منها. وقدم الأمير عبد الله بن الحسين عام ١٣٣٩هـ إلى شرق الأردن، لاتخاذها قاعدة لمقاومة الفرنسيين في سوريا. ورحب به كثير من زعماء الأردن. ولما كان تشرشل وزير المستعمرات البريطاني في القدس، قابل عبد الله وعرض عليه إمارة الأردن على أن يتفاهم مع فرنسا؛ وقبل العرض.

ولم تنقطع صلة الأمير عبد الله بن الحسين بتطورات الأحداث في الحجاز، فقد كان له دورا في كثير من الأحداث العسكرية، فهو الذي قاد جيش والده في معركة تربة عام ١٣٣٧هـ، وانهزم فيها على أيدي الإخوان. ولما أنهى الملك عبد العزيز إمارة آل رشيد في حائل في صفر عام ١٣٤٠هـ، وأصبحت أراضيها تحت حكمه، ومن ضمنها الجوف وقرى الملح ووادي السرحان، وبالتالي وصلت حدوده إلى الأراضي التي يحكمها عبد الله في شرقي الأردن. وانتهج عبد الله سياسة غير ودية تجاه الملك عبد العزيز، وكانت فئات من قبائله تغير على القبائل التابعة للملك عبد العزيز، وعلى القوافل التجارية النجدية المتجهة إلى الشام. وكان الإخوان يردون على تلك الغارات كما حدث آخر عام ١٣٤٠هـ. واستمر غارات قبائل شرق الأردن خلال عام ١٣٤١هـ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أقدمت الحكومة الأردنية على احتلال قرى الملح، ولما أراد الملك عبد العزيز استرجاعها بالقوة طلبت منه بريطانيا التريث لحل المشكلة سلميًا؛ وكان هذا مما دفعها إلى الدعوة إلى مؤتمر الكويت.

ولما بدأت المفاوضات بين وفدي نجد وشرق الأردن في مؤتمر الكويت بتاريخ ١٥ جمادى الأولى عام ١٣٤٢هـ؛ طالب وفد الأردن بتخلي حكومة نجد عن الجوف لابن شعلان، على أن يكون تحت إشراف الحكومة الأردنية. ورفض الوفد النجدي الطلب على اعتبار أن الجوف تبع للدولتين السعوديتين الأولى والثانية، ثم إلى إمارة جبل شمر التي أنهاها الملك عبد العزيز، وبالتالي أصبحت أراضيها تابعة له. ومما طالب به وفد نجد؛ إخلاء الأردن لقرى الملح، ورد ما نهبوه من أموال أهل نجد، ودفع ديوات المقتولين منهم. وتنوعت مطالب كل وفد. ولما طالب الوفد الأردني بتخلي نجد عن أجزاء من عسير لصالح حكومة الحجاز، كما طالب بإعادة آل رشيد إلى حائل، وآل عائض إلى عسير، مخالفًا بذلك ما اتفق عليه مع الملك عبد العزيز قبل المؤتمر؛ فأجلت المفاوضات. وتمسك كل وفد بمطالبه، وبالتالي فشلت المفاوضات بين الجانبين. وفشل مؤتمر الكويت في حل الخلافات بينهما.

وصمم الملك عبد العزيز على حسم الموقف مع الملك حسين بالقوة. (كما سبق الإشارة إلى ذلك في موضوع توحيد الحجاز). واتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع العراق والأردن من مساعدة الحجاز. وكان من ذلك أن أرسل حملة من الإخوان يزيد عددها على الألفين إلى شرق الأردن أوائل عام ١٣٤٣هـ، وتوغلت في أراضيه حتى اقتربت من عمان. واشتبكت مع القبائل الأردنية لعدة ساعات، ثم قامت الطائرات والمصفحات البريطانية بقصف المقاتلين من الطرفين. وقتلت أعداد كبيرة منها، وأسر عدد قليل من الإخوان، وانسحب الباقي إلى الأراضي السعودية. ولما أدركت بريطانيا قوة الملك عبد العزيز، وأنه بعد فراغه من السيطرة على الحجاز، وكان يحاصر جدة عام ١٣٤٤هـ؛ قد يتوجه صوب الأردن والعراق. وأدى ذلك إلى مفاوضات بين مندوبيها (كلايتون) والملك عبد العزيز؛ نتج عنها توقيع اتفاقية بحرة بين الحكومتين النجدية والعراقية، واتفاقية حدة بين الحكومتين الأردنية والسعودية، ووقعها كلايتون نيابة عن الحكومة الأردنية. وكان من أهم بنودها تحديد الحدود بين الطرفين. ورغم اتفاقية حدة، فلم تسر العلاقات بين البلدين وفق ما يرام؛ فقد ساند عبد الله بن الحسين حركة ابن رفاة والحزب الحجازي عامي ١٣٥٠-١٣٥١هـ. ثم أخذت تلك العلاقات بالتحسن التدريجي مع مرور الوقت.

المحاضرة الثانية عشر

علاقات الملك عبد العزيز بالقوى المحيطة:

العلاقات مع اليمن العلاقات مع بريطانيا

العلاقات مع اليمن :

بدأت العلاقات الحقيقية بين الملك عبد العزيز والإمام يحيى حميد الدين حاكم اليمن، بعد أن أصبحت عسير تحت حكم الملك عام ١٣٣٨ هـ؛ إذ أصبح بلداً متجاورين. وتوترت العلاقات بين الزعيمين، خلال الحرب بين أتباع الملك عبد العزيز والتمرديين عليه في عسير، حيث وصلت إلى أبها قافلة يمنية في طريقها إلى مكة؛ فنصحها أمير أبها بتغيير اتجاهها لتجنب مناطق القتال، فلم تستمع لنصيحته. ولما وصلت إلى جهات القتال طلب أتباع الملك منها العودة؛ فرفضت؛ فهاجموها وقتلوا أعداداً منها. وأسف الملك للإمام يحيى على ما حدث، وبعث إليه ما أخذ منها. وانتهى الأمر عند هذا الحد.

وجاءت التطورات المتلاحقة في جازان، على أثر وفاة محمد الإدريسي، حيث خلفه ابنه علي صغير السن، الذي لم يستطع السيطرة على الأمور. واستغل إمام اليمن ذلك، وانتزع الحديدة وبلدانا شمالها وشرقها. ثم حدثت ثورة في عسير، انتهت إلى أن تولى حكمها الحسن الإدريسي عم الأمير علي بن محمد. وحاول الحسن الحصول على مساعدة من بريطانيا وإيطاليا ضد إمام اليمن؛ فلم ينجح. ثم وجد ضالته في الملك عبد العزيز، فعقد معه اتفاقية مكة عام ١٣٤٥ هـ، التي تقضي بحمايته من أي اعتداء. وأرسل الملك نسخة من الاتفاقية إلى الإمام، ورد عليه الإمام بخطاب تضمن هجوماً على الإدارة من الناحية الدينية، ووصفهم بأنهم مغتصبون لقطعة من بلاد اليمن. وطلب من الملك أن يرسل وفداً للتفاوض. وحضر الوفد إلى صنعاء. لكن الطرفين لم يصلا إلى اتفاق.

واستمرت المفاوضات بين الطرفين، دون جدوى. وظلت الأوضاع بينهما هادئة نسبياً ثلاث سنوات، أي حتى عام ١٣٥٠ هـ حينما استولت قوات الإمام يحيى على جبل العر التابع للأدارة، بحجة أن أهل الجبل طلبوا ذلك منه لتعليمهم أمور دينهم، وأنهم ليسوا من تهامة ولا عسير. واقترح الملك مناقشة الموضوع عبر المفاوضات، واجتمع وفداً من كلا الجانبين، لكنهما لم يتفقا. وأحال الإمام الأمر للملك عبد العزيز راضياً بحكمه. وأكد الملك أنه لا حق لليمن في الجبل، لكنه تنازل عنه للإمام رغبة في السلام بين الطرفين. وأمر الزعيمان وفديهما بوضع اتفاقية تنظم حوادث الحدود بينهما. وتم ذلك.

وتأثرت العلاقات اليمنية السعودية أواخر عام ١٣٥٠ هـ، على أثر نشاط الحزب الحجازي وتنسيقاً مع ابن رفاة في شمال البلاد والإدريسي في جنوبها. ولما انتهت حركة ابن رفاة، وكذلك فشل تمرد الإدريسي آخر الأمر، ففر مع عدد من أفراد أسرته إلى اليمن. وطلب الإمام من الملك أن يبقوا لديه؛ فوافق الملك وخصص لهم مرتبات كافية، على أن يضمن الإمام يحيى عدم قيامهم بأي نشاط ضد الملك عبد العزيز. لكن نشاطهم لم يتوقف؛ فكتب الملك إلى الإمام للتفاوض لأجل تثبيت الحدود بينهما بصورة واضحة. ولما وافق الإمام توجه وفد سعودي إلى صنعاء. وما أن وصل اليمن حتى رأى الأعلام مرفوعة ابتهاجاً باستيلاء قواتها على نجران. وأقام الوفد في صنعاء خمسين يوماً دون تفاوض أو اتصال مع بلاده. ثم تفاوض الطرفان، ولم يصلا إلى اتفاق، فعاد الوفد السعودي.

واستمرت أعمال الإمام ضد البلاد السعودية، حتى اقتنع الملك أن الرغبة التي يظهرها الإمام في السلم لا تتفق مع أعماله؛ ولذلك أمر بعض قواته بالتوجه جنوباً تحسباً للطوارئ. ولما سأل الإمام عن سبب ذلك، أجابه أن أعماله وما تنشره الصحف اليمنية يثيران الشك، ودعاه إلى الاعتراف بالحدود وتثبيتها بمعاهدة، وإعادة الإدارة، وحل قضية نجران. واستمرت المراسلات بين الزعيمين دون نتيجة تذكر، حتى قبل الإمام نهاية الأمر انتقال الإدارة من المناطق الحدودية إلى داخل اليمن، واقترح عقد معاهدة لمدة عشرين سنة، يثبت فيها كل من الطرفين على ما في يده فعلاً من البلاد. ووافق الملك على ذلك. لكن قوات الإمام تسلمت إلى جهات جازان، فنبه الملك الإمام لخطورة الأمر، فلم يجبه، فأمر الملك قواته في بيشة بالسير إلى تهامة، وأمر ابنه سعوداً بالتوجه بقواته بالسيارات إلى أبها، وابنه فيصل بالتوجه من الحجاز عبر الساحل جنوباً. فكتب إليه الإمام طالباً امتناع الجانبين عن أي حركة، واجتماع مندوبيهما لتجهيز الاتفاقية التي سبق الموافقة على إعدادها؛ فوافق الملك، واقترح أن يكون الاجتماع في أبها حيث يوجد ابنه سعود ولي العهد.

وبدأت المفاوضات في أبيها في ذي القعدة ١٣٥٢ هـ، وترأس الوفد اليمني عبد الله الوزير، وترأس فؤاد حمزة الوفد السعودي، وتعثر الوصول لحلول للمشكلات المطروحة للنقاش، وأصر الوفد اليمني على عدم مناقشة قضية نجران باعتبارها تابعة لليمن. وتبادل الملك عبد العزيز مع الإمام يحيى برقيات عدة؛ أملاً في إنجاح المفاوضات، وموضحاً أنه لا بد من انسحاب القوات اليمنية من الجبال التابعة لجازان التي استولت عليها، وأنه لا بد من تحديد الحدود بمعاهدة، وإبعاد الأدارسة إلى داخل اليمن. ووافق الإمام على المسائل الثلاث الأولى، لكنه أصر على تبعية نجران له. فاقترح الملك أن يكون إقليم نجران محايداً بين الطرفين، أو يكون ما في يد كل منهما تابعاً له؛ فلم يرض الإمام بذلك. ولما فشلت الحلول السلمية، استعد الملك عبد العزيز لاستعادة حقوقه بالقوة.

أ- الحرب السعودية اليمنية :

أمر الملك عبد العزيز قواته بالتحرك لاسترجاع الأراضي السعودية التي استولت عليها قوات الإمام يحيى؛ وذلك في ٦ ذي الحجة ١٣٥٢ هـ / ٢١ - ٣ - ١٩٣٤ م. وسارت الحرب في جبهتين: شرقية تشمل حدود عسير الجبلية ونجران، وغربية من منطقة جازان.

الجبهة الشرقية :

تولى الأمير سعود بن عبد العزيز قيادة هذه الجبهة، وقسم جيشه إلى أربعة أقسام: الأول بقيادة فيصل بن سعد بن عبد الرحمن ووجهته باقم. والثاني بقيادة الأمير خالد بن محمد بن عبد الرحمن ويتقدم بين نجران يساراً وباقم يمينا ليصل إلى حدود صعدة. والثالث بقيادته هو ويتقدم شرق المنطقة التي يسير فيها القسم الأول ليكون رديفاً له؛ إضافة إلى التوجيه العام للجبهة. والرابع بقيادة مذكر القحطاني وابن سعيد ووجهته نجران. ورغم الصعوبات التي واجهت الأقسام الثلاثة الأولى بسبب وعورة المنطقة، فقد حققت معظم أهدافها. وانتزع القسم الرابع نجران بمعونة أهلها، من القوات اليمنية. واستولت قوة سعودية على عقبة تصل بين نجران واليمن غرباً. وتخرج موقف القوات اليمنية، وانسحبت باتجاه بلاد وائلة، فتعقبها القوات السعودية لإخراجها من الإقليم.

الجبهة الغربية :

تولى قيادتها أولاً حمد بن شويعر نيابة عن الأمير فيصل بن عبد العزيز. وانطلق بقواته من مركز تجمعها في صامطة متجهاً إلى بلدة حرص المهمة استراتيجياً، واستولى على تلك البلدة، وحاصر القوات النظامية التي لجأت إلى قلعتها الحصينة. وصمدت تلك القوات حتى اضطرت إلى الانسحاب ليلية الأولى من محرم ١٣٥٣ هـ، واستولى الشويعر على القلعة وما فيها من أسلحة ومعدات. وأرسل سرايا إلى الجهات القريبة من البلدة، حتى أعلنت قبائلها الطاعة. ثم زحف صوب بلدة ميدي الساحلية، وكان فيها القاضي عبد الله العرشي وفرقة من الجيش النظامي؛ فحاصرها حتى وصل إليه الأمير فيصل بالسيارات في ١١ محرم، وتولى القيادة العامة. ولما أدرك العرشي حرج موقفه انسحب من ميدي في ١٢ محرم. وبعث كبار البلدة رجلاً إلى الأمير فيصل ليرسل من يستلم البلدة ويؤمن أهلها. وتم ذلك ودخلها الأمير في اليوم التالي. ونجحت قوة تعقبت العرشي، بالقبض عليه، وأرسلته إلى مكة. وأخذ زعماء البلاد يفدون إلى الأمير فيصل في ميدي، طالبين الأمان؛ كان منهم وفد من زعماء تهامة، وآخر من اللحية، وقبائل وادي مور. وانسحبت قوات الإمام بسرعة من بلدان تهامة، ومنها الحديدة، التي دخلتها القوات السعودية دون مقاومة بعد انسحاب ابن الإمام منها، ووصلها الأمير فيصل في اليوم التالي. ثم دخلت بعض البلدان اليمنية في طاعته، كبيت الفقيه وبلاد الزرائيق.

ب- الصلح بين الطرفين ومعاهدة الطائف :

آلمت الحرب اليمنية السعودية كثيراً من المخلصين، فسعى عدد منهم للصلح بينهما. وقدم إلى الملك في الحجاز وفد منهم، تكون من أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في فلسطين، والأمير شكيب أرسلان رئيس الوفد السوري في أوروبا، وهاشم الاتاسي رئيس الوزراء السابق في سوريا، ومحمد علي علوبة وزير الأوقاف السابق في مصر، وعلي رشدي سكرتيراً للوفد. (جميعهم من العرب). وعرضوا الصلح على الملك فوافق، على أن تنسحب قوات الإمام من نجران والمناطق الجبلية التي احتلتها كجبل فيفاء وبني مالك والعبادل، ويسلم إليه الأدارسة. وقبل الإمام بذلك. فأمرت القوات بوقف القتال في جميع الميادين؛ وذلك في ٢٩ محرم ١٣٥٣ هـ / ١٣ - ٥ - ١٩٣٤ م. وكان الوفد اليمني برئاسة عبد الله الوزير قد انتقل من أبها إلى الحجاز. وبدأ المفاوضات مع وفد سعودي برئاسة الأمير خالد بن عبد العزيز. واتفق الطرفان على بنود معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية عرفت باسم معاهدة الطائف. ومن بنود المعاهدة:

١- إنهاء حالة الحرب بين البلدين، وبداية حالة سلم وصداقة.

٢- اعتراف كل منهما باستقلال الآخر

٣- تعد الحدود الموضحة في المعاهدة حدودا فاصلة بين البلدين، وتنازل كل منهما للآخر عن الأراضي التي أصبحت تابعة له بموجب المعاهدة.

ووقع المعاهدة رئيسا الوفدين في ٢٦ صفر عام ١٣٥٣هـ / ٢٠ - ٥ - ١٩٣٤م. ثم وقع عليها الملك عبد العزيز. وسافر بها وفد المصالحة العربية إلى اليمن، ومعه الوفد اليمني ووفد سعودي، ووقعها الإمام يحيى . وتبادل الطرفان نسختيها. وفتحت صفحة جديدة في تاريخ العلاقات السعودية اليمنية. رغم وجود معاهدة الطائف فقد شاب العلاقة السعودية اليمنية بعض الشوائب. خاصة عندما تعرض الملك عبد العزيز لمحاولة اغتيال من قبل ثلاثة رجال، في ١٠ ذي الحجة ١٣٥٣هـ، وهو يؤدي طواف الإفاضة، وبيئت التحقيقات السعودية أنهم يمنيون. واستنكر الإمام هذا العمل، وشكل لجنة تحقيق؛ خلصت إلى أن الرجال الثلاثة كان لهم اتصالات خارجية يصعب معرفة أسرارها. ويرأت الحكومة السعودية ولي عهد اليمن من الاشاعات التي اتهمته بأنه وراء الحادث؛ وأسدت الستار على الموضوع. وتنفيذا لمعاهدة الطائف شكلت هيئتان سعوديتان يمينتان لتخطيط الحدود في تهامة والجبال. وثبتت أعمدة من شمال ميدي على ساحل البحر الأحمر إلى الربع الخالي؛ وذلك عام ١٣٥٤هـ. وتحسنت العلاقات السعودية اليمنية عام ١٣٥٦هـ، بعد انضمام اليمن إلى معاهدة الأخوة العربية التي عقدت بين السعودية والعراق قبل عام من ذلك التاريخ. ووقف الملك عبد العزيز إلى جانب أحمد بن الإمام يحيى في صموده أمام الحركة التي تزعمها عبد الله الوزير؛ وأدت إلى اغتيال ذلك الإمام عام ١٣٦٨هـ.

٥- العلاقات مع بريطانيا:

كان لبريطانيا نفوذ كبير في الساحل الشرقي للجزيرة العربية، عندما بدأ الملك عبد العزيز أولى خطواته لإعادة الحكم السعودي. وكانت تراقب الأحداث بين ابن رشيد والملك، وتفاادت التدخل بينهما، ونصحت أمير الكويت بعدم مساعدة الملك عبد العزيز.

واتصل عبد العزيز مع بريطانيا بعد دخوله الرياض، وطلب تأييدها، لكنها لم تجبه. ثم طلب منها الحماية بعد معركة البكيرية، لأن الدولة العثمانية تساعد ابن رشيد. لكنها لم تستجب لطلبه وإن حذرت الدولة العثمانية من التدخل عسكريا في نجد. وحاول أن يحصل على اعتراف بريطانيا به، ونصحها مندوبيها في المنطقة، بيرسي كوكس، أن تقيم علاقات معه، لكنها عارضته، لاهتمامها بعلاقاتها مع الدولة العثمانية.

وكان أول لقاء بين الملك عبد العزيز ومسؤول بريطاني، عام ١٣٢٨هـ، حينما التقى بشكسبير الوكيل السياسي في الكويت. ثم لقيه مرة أخرى في العام التالي؛ حيث أوضح له رغبته في إخراج العثمانيين من الأحساء والقطيف لكونهما كانتا تابعتين لأسلافه، ومنفعتهما له عسكريا واقتصاديا. وتسائل عن إمكانية حماية بريطانيا له من البحر إذا ما هاجمه العثمانيون؛ لكن (شكسبير) نصحه ألا يقدم على هذا العمل نظرا لخطورته، وأن وضع بريطانيا لا يتيح لها مساعدته. ولما نجح في إخراج العثمانيين منهما بعد عامين من لقاءه الثاني بشكسبير، شجعت بريطانيا الدولة العثمانية على استرجاعهما منطلقا من البحرين. لكن المحاولة العثمانية باءت بالفشل.

ولما وصل نفوذ الملك عبد العزيز إلى ساحل الخليج الذي ترتبط إماراته العربية بمعاهدات مع بريطانيا، أخذ الموقف البريطاني من الملك بالتغير. وكان الملك يدرك قوة بريطانيا وأهمية تأمينه من سطوتها؛ فواصل سعيه للحصول على اعترافها به، وإقامة علاقات رسمية معه. لكن بريطانيا اختارت التريث، واستمرت تتعامل مع الدولة العثمانية وكأنها ما زالت تسيطر على الأحساء والقطيف. وأدركت بريطانيا أن موقفها السلبي من الملك عبد العزيز ليس من مصلحتها، وهي تستعد لدخول الحرب العالمية الأولى؛ لأنه سيؤدي به إلى الوقوف مع العثمانيين عمليا. واتخذ الملك سياسة مرنة مع الدولة العثمانية في ضوء عدم تجاوب بريطانيا معه. وتوصل الملك إلى اتفاقية مطمئنة نوعا ما مع الدولة العثمانية. وازداد حماس ممثلي بريطانيا في الخليج لتوثيق صلته بالملك عبد العزيز، وكان في طليعتهم شكسبير، الذي أصر على صحة الملك وهو متجه لمحاربة سعود بن رشيد في جراب عام ١٣٣٣هـ؛ فقتل في المعركة. وطلبت بريطانيا من الملك عبد العزيز أن ينضم إلى حاكمي المحمرة والكويت لمساعدتها في انتزاع البصرة من العثمانيين؛ مقابل وعدا بأن تعترف به حاكما مستقلا، وتحميه من أي هجوم بحري عليه، لكنه فضل مناقشة الموضوع شخصا مع شكسبير. وقد اتضح لشكسبير أن الملك عبد العزيز لن يترك موقفه الحيادي بين بريطانيا

والدولة العثمانية حتى يتوصل إلى اتفاقية موقعة ومختومة من بريطانيا. ونصحها شكسبير أن يقدم خطوطا عريضة للاتفاقية التي يطمح إليها.

وبدأت المفاوضات بين الطرفين، وانتهت بتوقيع معاهدة دارين، أو القطيف، عام ١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م. ومن أهم بنودها: اعتراف بريطانيا به حاكما مستقلا لنجد والأحساء والقطيف والجبيل وملحقاتها، ومساعدتها له ضد أي دولة تعتدي على أراضيه، مقابل أن يتعهد الملك عبد العزيز بالامتناع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع أية دولة أجنبية، وعن التدخل في أراضي إمارات الخليج العربية التي هي تحت الحماية البريطانية. وكان موقف الملك حايديا بين الدولة العثمانية وبريطانيا قبل معاهدة دارين، وذلك لأسباب عديدة، منها انشغاله بأموره الداخلية وفي مقدمتها مشكلة العجمان. وعدم رغبته في الإقدام على أمر لا فائدة منه.

وكان من نتائج الحرب العالمية الأولى أن أصبح نفوذ بريطانيا في المنطقة أعظم من ذي قبل؛ فدخلت تحت نفوذها العراق وشرقي الأردن وجهات أخرى. وأصبحت صاحبة الكلمة العليا في تحديد علاقات حكام تلك الأقطار بالملك عبد العزيز. واتضح ذلك في المعاهدات التي وقعها مع الكويت والعراق والأردن. ولما وحد الملك عبد العزيز الحجاز مع البلاد التي تحت حكمه؛ دارت مفاوضات بينه وبين بريطانيا، والتي أدت إلى معاهدة جدة، التي وقعها بتفويض منه ابنه فيصل النائب العام في الحجاز، وذلك في ١٨ ذي القعدة عام ١٣٤٥هـ/ ٢٠ - ٥ - ١٩٢٧م. وقد تضمنت اعتراف بريطانيا باستقلال الملك عبد العزيز التام داخليا وخارجيا. وبذلك ألغيت معاهدة دارين السابقة.

المحاضرة الثالثة عشر

من جوانب النهضة في عهد الملك عبد العزيز :

١ - تنظيم الإدارة

٢ - تنظيم البلاد وتوحيد اسمها

٣ - تنظيم شؤون القضاء والحسبة

٤ - الدخل والتنظيم المالي

١ - تنظيم الإدارة العامة للبلاد :

أدار الملك عبد العزيز الشؤون العامة للبلاد خلال مرحلة التوحيد؛ على نهج أسلافه. ومن معالم ذلك الطريق تطبيق الشريعة، واستشارة علماء الدين وأمراء الحاضرة ورؤساء البادية؛ إضافة إلى أفراد أسرته ورجال البلاد الآخرين. واستفاد من بعض الشخصيات النجدية المتعلمة، ومن شخصيات عربية غير نجدية التحقت بخدمته، ومن رجال المناطق غير النجدية التي توحدت تحت رايته. (انظر الكتاب المقرر هوامش الصفحة ٣٠٠ حيث تحتوى على عدد من الأسماء). واستفاد الملك عبد العزيز من التنظيمات العثمانية الإدارية التي كانت موجودة في الأحساء والقطيف وعسير. لكن التحول في التنظيم الإداري لم يحدث إلا بعد توحيد لمنطقة الحجاز. فقد اهتمت الدولة العثمانية بالحجاز بشكل خاص، لاسيما مكة المكرمة والمدينة المنورة. فقامت ببعض الإصلاحات في الحجاز لترسيخ سلطة الدولة؛ وكان من ذلك مد سكة حديد الحجاز من دمشق إلى المدينة المنورة. وتأسيس مطبعة حكومية، وإصدار جريدة الحجاز، التي تلتها عدة صحف بالعربية والتركية. ولما استقل الحسين بن علي بالحجاز عام ١٣٣٤هـ، قام بعدة أمور تتلاءم مع الوضع الجديد للبلاد. كان منها إصدار عملة خاصة بالحجاز، وإنشاء جريدة القبلة، وتشكيل حكومة باسم (مجلس الوكلاء).

وراعى الملك عبد العزيز ظروف الحجاز الخاصة، فاستفاد من التجارب السابقة فيها. ولما دخل مكة المكرمة جمع علماءها وأعيانها، وطلب منهم أن يكونوا عوناً له في تسيير شؤون البلاد، وأن ينتخبوا من بينهم أعضاء لوضع تلك المعونة موضع التنفيذ؛ فانتخبوا ما سمي ((المجلس الأهلي))، الذي تولى النظر في شؤون المحاكم والأوقاف، والأمن، والبلدية، والصحة، والبرق والبريد. وبيع أهل الحجاز السلطان عبد العزيز ملكاً عليهم عام ١٣٤٤هـ، وفي نفس العام عين ابنه فيصل نائباً عنه في الحجاز، وشكل هيئة لوضع وصف للحكومة وتنظيمات إدارتها. وأصدرت الهيئة في العام التالي ((التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية)). وقد تضمنت أن المملكة لا تقبل

التجزئة أو الانفصال، وأنها شورية إسلامية مستقلة في داخليتها وخارجيتها، وإدارتها بيد الملك عبد العزيز الذي هو مقيد بأحكام الشرع. كما تضمنت إنشاء مجلس للشورى برئاسة النائب العام للملك في الحجاز، وعضوية ثمانية من ذوي الفضل والخبرة. وكانت مهمة المجلس استشارية تنظيمية، وأنجز كثيرا من الأنظمة والتعليمات.

وشكل عام ١٣٤٥ هـ، مجلس تنفيذي من رؤساء الدوائر الحكومية لمساعدة النائب العام في الحجاز. وانبثق عن هذا المجلس عام ١٣٥٠ هـ، مجلس الوكلاء. وحل محله مجلس الوزراء عام ١٣٧٣ هـ. وكانت التنظيمات السابقة مركزة على منطقة الحجاز خلال السنوات العشر الأولى من توحيد البلاد. أما شؤون نجد وغيرها من البلاد، لاسيما الشؤون الخارجية، فقد أدارها الملك عبد العزيز من خلال عدة قنوات، كان من أهمها:

أ- المجلس الخاص: يجتمع مرتين يوميا برئاسة الملك، ويحضره أخوه عبدالله وولي العهد الأمير سعود، ومن يحملون لقب وزير دولة، والمستشارون.

ب- الشعبة السياسية: وتعنى بالشؤون الخارجية.

ج- الديوان الملكي: ويعنى بالشؤون الداخلية هذا إلى جانب عدة شعب أخرى ذات اختصاص محدد كشعبة البادية وغيرها. وكان الأمير سعود بن عبد العزيز الذي أصبح وليا للعهد منذ عام ١٣٥٢ هـ، يساهم في تسيير الأمور الإدارية خصوصا في منطقة نجد.

٢- اتخاذ البلاد اسمها الموحد:

كان من الألقاب التي أطلقها أتباع الدولتين السعوديتين الأولى والثانية على حكامهم لقب ((الإمام))؛ رمزا لقيام حكمهم على أسس دينية. رغم أنه لم يطلق على أي من الدولتين اسم ((إمامة)). وقد سمى كثير من أبناء البلاد، خاصة علماء الدين، الملك عبد العزيز بالإمام، وحمل والده نفس المسمى في نفس الوقت.

أما الألقاب التي خاطبته بها الحكومات الأجنبية من خلال ممثليها، قبل اتخاذها رسميا لقب

((سلطان))؛ فمنها : ((الأمير)) و ((الشيخ)) و ((والي نجد وقاندها.. الباشا..)) و ((حاكم نجد والحسا والقطيف..)) وكثيرا ما خاطب ب ((ابن سعود)) . ولما عقد مؤتمر في الرياض عام ١٣٣٩ هـ، حضره علماء البلاد وأعيانها، تقرر فيه أن يكون لقب حاكمهم ((سلطان نجد وملحقاتها)) . ولما بايعه أهل الحجاز ملكا عليهم عام ١٣٤٤ هـ؛ أصبح لقبه ((ملك الحجاز ولسطان نجد وملحقاتها. ولما بايعه أهل نجد ملكا عليهم في العام التالي؛ أصبح لقبه : ((ملك الحجاز ونجد وملحقاتها))). ولما قضى على الفتن الداخلية بعد توحيد البلاد عمليا، أصبح التوقيت مناسبة لتوحيد البلاد رسميا في اسم واحد؛ وصدر مرسوم ملكي في ١٧ جمادى الأولى عام ١٣٥١ هـ بتوحيدها باسم ((المملكة العربية السعودية)) ؛ اعتبارا من ٢١ من الشهر المذكور الموافق ٢٢ - ٩ - ١٩٣٢ م، وأصبح لقبه ((ملك المملكة العربية السعودية)) منذ ذلك التاريخ . المسمى في المملكة باسم : (اليوم الوطني).

٣- تنظيم شؤون القضاء والحسبة :

أ- القضاء :

كان من أبرز ملامح القضاء في نجد في عهدي الدولتين السعوديتين الأولى والثانية، اعتماده على المذهب الحنبلي، وسهولة الإجراءات القضائية، فقد كان علماء نجد حنابلة منذ ما يقارب الخمسة قرون. وكان الشيخ عبد الله بن عبد الطيف آل الشيخ مرجع الأمور الدينية بصفة عامة، لدى الملك عبد العزيز حتى وفاته عام ١٣٦٧ هـ، ثم تولى آخرون من آل الشيخ منزلة رفيعة في الشؤون الدينية. تعددت المسائل التي كان ينظر فيها القضاة. وكان أمير البلدة يحيل المتهم إلى القاضي في المخالفات الدينية والأخلاقية، فيحكم القاضي دون تدوين للقضية وينفذ الأمير الحكم. أما المسائل الخلافية بين خصمين، فكانا يذهبان إلى القاضي مباشرة، ويحكم بينهما دون تدوين للقضية أيضا. وقد يلتبس المحكوم له تصديق الملك عبد العزيز على الحكم؛ فيتم ذلك. وقد يبدي من خسر القضية عدم رضاه بالحكم؛ فيشتكي إلى الملك، الذي يوجه أحد القضاة الكبار لإعادة النظر في القضية من جديد. ونادرا ما كان يحدث مثل هذا الأمر. اعتمد القضاء في منطقة الأحساء والقطيف وعسير قبل توحيد الملك لها؛ على المذهب الحنفي، المذهب الرسمي للدولة العثمانية التي حكمتها فترة من الزمن. ولما وحدها الملك مع نجد أصبح القضاء فيها يعتمد على المذهب الحنبلي. وأصبح أكثر قضائها من علماء نجد، الذين يتبعون المذهب الحنبلي.

وكان لمنطقة الحجاز أوضاعها القضائية الخاصة. حيث كان تعيين قاضي مكة يتم من العاصمة العثمانية، ويرتبط مباشرة بشيخ الاسلام فيها. ويعتمد قاضي مكة على المذهب الحنفي المذهب الرسمي للدولة. ولما استقل الشريف الحسين بالحجاز، بقي رئيس القضاة لدية حنفيا، إلى جانب قضاة من المذاهب السنية الثلاثة الأخرى. وأصبح هناك محكمة كبرى، ومحكمة مستعجلة، ومحكمة تجارية. وأنشئت في عهده (مدرسة قضاة الشرع) لتدريس العلوم الشرعية وتخريج قضاة أكفاء في عملهم. ولما وحد الملك عبد العزيز الحجاز، أبقى القضاء معتمدا على المذاهب السنية الأربعة حوالي سنتين، ثم أمر بتوحيده على المذهب الحنبلي. وكان أول من تولى إدارة القضاء في الحجاز في عهد الملك عبد العزيز، الشيخ محمد المرزوقي. ثم حولت تلك الإدارة إلى رئاسة عام ١٣٤٤ هـ، وعين فيها الشيخ عبد الله بن بليهد. وربطت بتلك الرئاسة هيئة تمييز الأحكام التي أنشئت عام ١٣٥٠ هـ. وحدثت تطورات كثيرة في هذا المجال.

ب- الحسبة :

الحسبة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من الأمور الهامة جدا في الدين الإسلامي. وكان ممن اهتم بها علماء نجد منذ ظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وقادة الدولتين السعوديتين الأولى والثانية. وتوضحت مكائنها وشروطها ووسائلها. وأولى الملك عبد العزيز الحسبة ما تستحقه من عناية؛ وكان أول مسؤول مباشر عنها في الرياض الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف آل الشيخ. واتسع نشاط رئاسة الحسبة تدريجيا ليشمل أقاليم نجد، ثم باقي مناطق المملكة. ولما وحد الملك عبد العزيز الحجاز، وفي عام ١٣٤٤ هـ؛ أنشأ هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة، وأسند رئاستها إلى الشيخ عبد الله الشيبني. ثم أنشأ هيئات مماثلة في مدن الحجاز الكبيرة. وكانت تحت إشراف رئاسة القضاء في بداية الأمر ثم ربطت بالأمن العام عدة سنوات، ثم أعيدت إلى رئاسة القضاء. وفي عام ١٣٧٢ هـ أصبح في المملكة رناستان رسميتان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الأولى مركزها الرياض وتشرف على الهيئات في نجد والمنطقتين الشرقية والشمالية، ويرأسها الشيخ عمر آل الشيخ. والثانية مركزها مكة وتشرف على الهيئات في الحجاز وعسير وجازان، ويرأسها الشيخ عبد الملك بن ابراهيم آل الشيخ. ثم وحدت الهيئتان برئاسة واحدة عام ١٣٩٦ هـ.

٤- الدخل والتنظيم المالي:

اعتمد دخل الدولة أثناء عمليات توحيد البلاد السعودية بشكل كبير على مصدرين هما: الزكاة والغنائم. لكن ما يتأتى منهما لم يكن كافيا، فوضعت ضريبة على السكان؛ خاصة من لا يشتركون من الحاضرة في الغزوات، سميت ضريبة ((الجهاد))). وعندما لا تكفي تلك المصادر لسد الاحتياجات كان يلجأ إلى الاقتراض من الأغنياء. ولما دخلت منطقة الأحساء والقطيف عام ١٣٣١ هـ تحت حكم الملك عبد العزيز؛ تحسنت أوضاع دولته المالية كثيرا؛ لأنها منطقة غنية زراعيًا، خاصة بالنخيل، وبإديتها من الكثرة بكان؛ ولذا أصبحت زكاتها تمثل دخلا لا يستهان به. هذا إلى جانب مصدر جديد للدخل تمثل في جمارك البضائع الواردة إلى موانئها. ثم توالى دخول المناطق الأخرى، لتساهم في تحسين الأوضاع المالية. ولما اكتمل توحيد الحجاز؛ توقف أو كاد المصدر الثاني للدخل المتمثل في الغنائم. وحل محله مصدر آخر وهو الحج؛ إضافة إلى زكوات المنطقة وجماركها.

لكن المتطلبات المالية المتزايدة لبناء الدولة الجديدة، كانت تفوق مصادر الدخل التي أخذت بالنمو بتدفق النفط في البلاد وتصديره. وبدأت أول محاولة لاكتشاف النفط في البلاد عام ١٣٤٢ هـ؛ باتفاقية مع شركة سنديكت الشرقية الانجليزية؛ للتنقيب عنه في المنطقة الشرقية، على أن تدفع للملك مقدما ألفي جنيه ذهبي، ومثلها سنويا حتى تكتشف النفط. وتوقفت الشركة عن العمل وألغيت الاتفاقية عام ١٣٤٧ هـ.

ولما زار الثري الأمريكي (تشارلز كرين) المملكة عام ١٣٤٩ هـ، شرح له الملك مشكلة قلة المياه؛ فوعده أن يبعث إليه خبيرا للمساعدة؛ فأرسل الجيولوجي تويتشل، الذي كلفه الملك أيضا بدراسة إمكانية وجود المعادن في المملكة. ولما قارن تربة منطقة الأحساء بتربة البحرين، التي اكتشفت فيها النفط، ترجح لديه إمكانية وجود النفط في الأحساء. وفوضه الملك للاتصال بممولين للتنقيب عنه. ونتج عن اتصالاته أن اتفقت شركة ((ستاند اويل أف كاليفورنيا)) -وهي أمريكية- مع حكومة المملكة عام ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م، على قيام الشركة بالتنقيب عن النفط في شرقي البلاد وفق شروط منها: أن مدة امتياز الشركة ستون عاما، وأن على الشركة أن تقرض المملكة فورا ثلاثين ألف جنيه ذهبي، ثم عشرين ألفا بعد سنة ونصف، وتدفع الشركة إيجارا سنويا خمسة آلاف جنيه، ثم تدفع بعد اكتشاف النفط أربعة شلنات عن كل طن. وفي عام ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م، اكتشف النفط بكميات تجارية قرب بلدة الدمام.

أما التنظيم المالي لدخل الدولة السعودية، فقد استمر لفترة كما كان زمن أسلافه، بحيث ترد الأموال إلى خزينة الملك وينفقها على متطلبات الدولة. واستفاد الملك عبد العزيز من التنظيمات العثمانية في الأحساء والقطيف وعسير والحجاز. وكانت أولى خطوات الملك لتنظيم مالية الحجاز؛ أن ألف لجنة عام ١٣٤٤هـ؛ لدراسة أوضاعها المالية، وأنشأ إدارة مالية في الحجاز في العام نفسه. وبعد عامين وحد الدوائر المالية في الحجاز باسم : مديرية المالية العامة، وعين عبد الله بن سليمان الحمدان مديراً لها. وتحولت المديرية إلى وكالة، ثم أصبحت الوكالة وزارة عام ١٣٥١هـ. واتسعت صلاحيات وزارة المالية، وارتبطت بها أمور كثيرة مختلفة منها : الحج، والدفاع، والزراعة ؛ وغيرها. وكانت أول محاولة لعمل ميزانية للمملكة في عام ١٣٤٨هـ. ثم تقرر أول ميزانية عام ١٣٥٢هـ ، حيث فصلت فيها الواردات؛ فبلغت أربعة عشر مليون ريال.

انتشرت في البلاد السعودية عملات نقدية متنوعة؛ منها العثمانية والبريطانية والفرنسية وغيرها. ولما وحدها الملك عبد العزيز الحجاز أصدر عملة نحاسية من فئات القرش ونصفه وربيعه عام ١٣٤٤هـ. وبعدها بسنتين (١٣٤٦هـ) صدر أول نظام للنقد في المملكة، كما سك من الفضة الريال العربي السعودي ونصفه وربيعه. وفي عام ١٣٧١هـ أنشئت مؤسسة النقد العربي السعودي. وأصدرت الدولة في العام التالي الجنيه الذهبي السعودي، الذي كان مساوياً للجنيه الإنجليزي الذهبي في حجمه ووزنه.

المحاضرة الرابعة عشر

تابع - من جوانب النهضة في عهد الملك عبد العزيز :

٥- التعليم وتنظيمه ٦- الأمن وتنظيمه ٧- الجيش وتنظيمه ٨- المياه والزراعة

٩- الرعاية الصحية ١٠- المواصلات والاتصالات ١١- وفاة الملك عبد العزيز

٥- التعليم وتنظيمه :

كان التعليم في البلاد السعودية قبل التوحيد شبه معدوم في البادية، وقليل في الحاضرة. وذلك بسبب ترحال فئات من البادية من مكان إلى آخر، وانشغال الناس بالبحث عن لقمة العيش؛ إضافة إلى عدم الاستقرار السياسي، وقلة الاهتمام بالعلم. وكان هناك نوعان من التعليم؛ الأول: ما سمي بالكتاتيب، ويدرس فيها القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة، ويلتحق به من تسمح لهم ظروفهم المادية والأسرية. والثاني: حلقات العلماء في المساجد، ويتركز التدريس فيها على أصول الدين وفروعه، وقواعد اللغة العربية. ولم يكن الإقبال عليها كبيراً، رغم أن أولئك غالباً ما كانوا يدرسون دون مقابل مادي.

وكان لبعض المناطق التي تكونت منها البلاد السعودية، أوضاعاً خاصة لأسباب سياسية واجتماعية ودينية؛ فقد تفوقت الأوضاع العلمية في الحجاز على غيره؛ إذ كان الحرمان الشريفان في مكة والمدينة ملتقى العلماء وطلاب العلم من جميع البلاد الإسلامية. وكان من أولئك العلماء من يبقى مجاوراً في إحدى البلدين لفترة طويلة من حياته، أو طوال عمره؛ فيسهم في التدريس ونشر العلم والمعرفة. واهتمت الدولة العثمانية، والأغنياء من المسلمين بالحرمين؛ فجعلوا لهما أوقافاً في الحجاز وخارجه، كان يصرف جزء من ريعها على العلماء وطلاب العلم. وتعود جذور التعليم المنظم في الحجاز إلى العهد العثماني، وكان موجوداً أوائل القرن الرابع عشر الهجري. وكان منه الحكومي الرسمي، الذي يعتمد اللغة التركية لغة التعليم. والأهلي غير الرسمي الذي

يتخذ اللغة العربية لغة التعليم، ويعتمد على نفقة المحسنين. وكان في مقدمة المدارس الأهلية المدرسة الصولتية بمكة، ومدرستا الفلاح بجدة ومكة. ولما استقل الحسين بالحجاز عن الدولة العثمانية، اهتم بالتعليم ؛ ومن مظاهر اهتمامه أن جعل له وكالة (وزارة) خاصة به. وافتتاح مدارس في عدد من بلدان المنطقة.

وأولى الملك عبد العزيز التعليم اهتماماً كبيراً. وكان يقدر العلماء ويقربهم إليه، ويحضرهم مجالسهم. ويشجع طلاب العلم. وجاءت فكرته الرائدة لتحضير البادية، لتؤكد اهتمامه بنشر المعرفة الدينية، من خلال إرسال المرشدين إلى المضارب والهجر. وكانت الأوضاع العلمية في الحجاز بشكل خاص، مناسبة لتقوية عزيمة الملك عبد العزيز لبدء حركة تعليمية منظمة. وتمثل ذلك بأن أمر عام ١٣٤٤هـ، بإنشاء ((مديرية المعارف العمومية))؛ لترعى شؤون التعليم وتنطلق به إلى الأمام، وكان أول مدير لها السيد صالح شطا. وبعد أقل من عامين على إنشائها أمر الملك بإنشاء مجلس للمعارف للإشراف على سيرها وتنظيمها.

وقامت مديرية المعارف برعاية التعليم، وفتحت المدارس التابعة لها أمام التلاميذ بعد ثلاثة أشهر من إنشائها. واتسع نشاطها، وزادت ميزانياتها تدريجياً. وشمل عملها مساعدة المدارس الأهلية. ولما أدركت المديرية الحاجة الملحة إلى أساتذة من أبناء البلاد، فتحت عام ١٣٤٥ هـ، المعهد العلمي السعودي، لتخريج مدرسين للمرحلتين الابتدائية والأولية. وقامت عام ١٣٤٦ هـ، بإرسال أول بعثة للدراسة في مصر في مجال

العلوم، ولما واجهت مشكلة عدم أهلية الطلاب السعوديون للتخصصات العلمية، بسبب غياب المقررات التي تؤهلهم للالتحاق بتلك التخصصات، قامت بافتتاح مدرسة تحضير البعثات عام ١٣٥٦ هـ. وركزت المديرية جهودها خلال العقد الأول من عمرها على الحجاز. ثم وسعت نشاطها ليشمل مختلف مناطق المملكة. وانتشرت المدارس انتشاراً واسعاً؛ فمثلاً ارتفع عدد المدارس الابتدائية من إحدى وسبعين عام ١٣٦٧ هـ، إلى أكثر من مئتين عام ١٣٧٣ هـ، والمدارس الثانوية من خمس إلى اثنتي عشرة. وقد ساعد على ذلك زيادة كميات النفط المصدرة. وتحولت المديرية إلى وزارة عام ١٣٧٣ هـ.

وافتتحت مديرية المعارف مدرسة دار التوحيد في الطائف عام ١٣٦٤ هـ. وكانت تعنى بتدريس أصول الدين وفروعه وعلوم اللغة العربية. وبعد ست سنوات ولما ازدادت الحاجة إلى متخصصين في هذا المجال؛ فتحت أول معهد علمي في الرياض، تحت إدارة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ. وكان منهجه مشابهاً لمنهج دار التوحيد. كما وجدت مدارس متخصصة في عدة مجالات كالزراعة والتجارة وغيرها.

ولم يقتصر التعليم في عهد الملك عبد العزيز على المراحل السابقة للمرحلة الجامعية، وابتعث الطلاب للدراسة الجامعية خارج البلاد. فقد وضعت نواة التعليم الجامعي في المملكة بإنشاء كلية الشريعة في مكة عام ١٣٦٩ هـ. ثم افتتحت كلية المعلمين فيها عام ١٣٧٢ هـ. وفي مطلع السنة التالية افتتحت كلية الشريعة في الرياض برئاسة الشيخ محمد بن إبراهيم.

٦- الأمن وتنظيمه:

بذل قادة الدولة السعودية في أدوارها المتعاقبة جهوداً كبيرة في مجال الأمن ونشره في ربوع البلاد. وقد ساهمت المبادئ الدينية لدى الأفراد والجماعات في ترسيخ مفهوم الأمن واجتناب الجرائم. وكان لتطبيق الشريعة، والحزم في التعامل مع المجرمين دوراً في استتباب الأمن. وأعجب الملك عبد العزيز بسيرة أسلافه في المجال الأمني، وسار على نهجهم، وأضاف أفكاراً رائدة وتنظيمات جيدة؛ حتى أثمرت جهوده. وكان من أفكاره الرائدة إرسال دعاة ومرشدين إلى مضارب البادية لحثها على الاستيطان؛ لتتمكن من فهم عقيدتها وممارسة واجباتها الدينية كما ينبغي. ونجحت تلك الجهود في ظل حركة الإخوان في استتباب الأمن ورسوخه. وعمق الملك عبد العزيز الاهتمام بالأمن بعد توحيدة الحجاز، إذ لم يعد مسؤولاً عن أمن مواطنيه فحسب، بل عن غيرهم من حجاج ومعتمرين.

واستند في نهجه على أسس متينة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وبإثناء مديرية الشرطة العامة عام ١٣٤٤ هـ. وارتبطت بداية بمدير الأمن العام، ومرجعه النائب العام للملك في الحجاز. وكان مقرها الرئيس في مكة. ثم أنشئت مديريات أخرى للشرطة في مناطق متعددة من المملكة. وأصبحت هذه الإدارات تحت رئاسة مدير الأمن العام في عام ١٣٤٩ هـ. وارتكزت قوات الشرطة على قوى المشاة، والممرور، والخيلة والآليات، وشرطة حماية الأخلاق. وأنشئت مدرسة للشرطة في عام ١٣٥٤ هـ، هدفت إلى تخريج ضباط ومساعدي ضباط. وفي عام ١٣٦٣ هـ تحولت مديرية الشرطة العامة إلى مديرية عامة للأمن. وتوسعت مسؤولياتها، واستقدم لها خبراء من البلدان العربية لتطوير أجهزتها، وابتعث عدد من رجالها للتخصص في شؤون الأمن العام. واستحدثت تشكيلات جديدة عام ١٣٦٩ هـ، ومما تضمنته تعريف الأمن العام بأنه : ((القوات المسلحة المسؤولة عن المحافظة على النظام وصيانة الأمن العام، وتوفير أسباب الراحة العامة، بمنع الجرائم قبل وقوعها، وضبطها بعد ارتكابها،...)). ثم أنشئ جهاز باسم حرس خفر السواحل، مهمته حفظ الأمن في الجهات الساحلية. وأعيد تنظيم أجهزة الأمن العام بعد تكوين وزارة الداخلية عام ١٣٧٠ هـ.

٧- الجيش وتنظيمه:

لم يكن للدولتين السعوديتين الأولى والثانية جيش دائم، وكانت القوات المحاربة تتكون مما يطلبه الحاكم من أمراء المناطق والبلدان ورؤساء القبائل من المقاتلين لينضموا إلى الغزو المنوي القيام به. وفي بدايات عهد الملك عبد العزيز أثناء عمليات توحيد المناطق المختلفة، سار على النهج السابق. وكان أفراد الحاضرة يمثلون العمود الفقري لقواته في تلك المرحلة. ولما نجح في توطيد البدو في (الهجر)، وأصبحوا (إخواناً)، صاروا في طليعة قواته

المحاربة. ولما أتم الملك توحيد الحجاز مع بقية البلاد؛ أدرك أهمية تطوير قواته وتنظيمها. مستفيدا من نواة الجيش النظامي الذي كان في الحجاز. وسعى لذلك عندما كان محاصرا للملك علي بن الحسين في جدة؛ إذ نادى أفراد وضباط الجيش الهاشمي للالتحاق به؛ ولبي كثير منهم النداء. وساهم الجميع في تأسيس قوات الشرطة والأمن، وخفر السواحل، وتشكيل وحدات عسكرية متعددة. واستقدم عددا من الضباط من البلاد العربية، خاصة سوريا، الذي أسهموا في عملية التشكيل. وكانت بداية تشكيل الجيش السعودي النظامي بفوج من المدفعية، وفوج من الرشاشات، وفوج من المشاة. وكان من الخطوات المهمة في نشأة الجيش السعودي النظامي، تأسيس مديرية الأمور العسكرية عام ١٣٤٨هـ. وبعد خمس سنوات تشكلت وكالة للدفاع إلى جانب تلك المديرية. ومما قامت به الوكالة إعادة تشكيل وحدات الجيش وتنظيمها على أساس كتائب وألوية، وإنشاء مدرسة عسكرية في الطائف.

وجاءت النقلة الكبيرة في تاريخ الجيش العربي السعودي عام ١٣٦٣هـ، عندما حولت وكالة الدفاع إلى وزارة، وعين الأمير منصور بن عبد العزيز وزيرا لها. والذي اتخذ خطوات هامة لتطوير الجيش بسرعة، تنظيما وتدريباً وتسليحا. ومما قام به استقدام خبراء من الخارج للتدريب، وابتعاثه أعدادا من الجيش إلى بلدان عربية وأجنبية، وافتتاحه عددا من المدارس العسكرية المتخصصة، والبدء ببناء المصانع الحربية في الخرج. وبذلك أكتمل بناء الأسس القوية للجيش العربي السعودي. وكان من مواقفه المشرفة الاشتراك في الحرب التي خاضتها الجيوش العربية إلى جانب الفلسطينيين ضد اليهود عام ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م.

٨- المياه والزراعة:

تختلف مصادر المياه في المناطق السعودية من منطقة لأخرى، فقد وجدت العيون الجارية في الأحساء والخرج والقصيم، وعيون حفرها وأجراها المتبرعون قرب مكة والمدينة. لكن الوضع العام في أكثر الأقاليم يعتمد على الآبار التي غالبا ما تجف مياهها. وكانت بعض المناطق تعتمد على مياه الأمطار الموسمية مثل عسير. وكانت مصادر المياه في تناقص، فكان لا بد من البحث عن مصادر جديدة وتحسين الموجود منها، مع تزايد حاجة السكان للمياه مع بؤادر دخول جوانب الحضارة الحديثة ومتطلباتها. واعتمدت طرق الزراعة على الأساليب المتوارثة، سواء منها البعلي أو السقي.

وأدرك الملك عبد العزيز أهمية توافر المياه وتطوير الزراعة، وكذلك حجم المشكلة في بعض المدن، خاصة في الحجاز. وقرر أن يبذل ما في وسعه للتغلب على مشكلة نقص المياه بالوسائل الحديثة. وبدأ بتنفيذ قراره بتوفير المياه وتطوير الزراعة منذ عام ١٣٤٦هـ، وكانت أول محاولة للبحث عن مصادر المياه تلك التي قام بها المهندس الجيولوجي الأمريكي، تويتشل، عام ١٣٥٠هـ. أما أول بعثة فنية لتطوير الزراعة فكانت من العراق عام ١٣٥٣. وتوالت الدراسات والبعثات بعدها. وكان إنشاء مديرية الزراعة عام ١٣٦٧هـ، خطوة مهمة لتحقيق الأهداف المرجوة. وقد تحولت إلى وزارة بعد وفاة الملك عبد العزيز بقليل، وكان أول وزير لها الأمير سلطان بن عبد العزيز. ومما تم في عهد الملك عبد العزيز على سبيل المثال لا الحصر :

١- تركيب آلتين كبيرتين لتقطير المياه في جدة عام ١٣٤٥هـ، وإنشاء هيئة عين الوزيرية عام ١٣٥٢هـ.

٢- إنشاء لجنة عين الزرقاء في المدينة المنورة عام ١٣٤٦هـ. وإنشاء هيئة عين زبيدة عام ١٣٥٣هـ.

٣- إعفاء المعدات الزراعية من الرسوم الجمركية، واستيراد الآلات وبيعها للمزارعين بأسعار مخفضة، وتقديم مساعدات لصغار المزارعين، وإنشاء مصارف لإقراضهم.

٤- إقامة مشروع الخرج الزراعي.

٩- الرعاية الصحية:

اتبع السكان في أغلب البلاد السعودية الطرق التقليدية في علاج الأمراض التي تحل بهم- باستثناء بعض المدن الكبيرة في الحجاز-، وبعضها كان نافعا وبعضها غير نافع. ورغم أن الحجاز كانت أوفر حظا من المناطق الأخرى، فقد كانت الأكثر عرضة للأخطار والأمراض الوبائية. ونظرا لمكانتها الدينية فقد اهتمت الدولة العثمانية بها، فأنشأت هناك المستشفيات والمحاجر الصحية. وأدرك الملك عبد العزيز حجم المسؤولية على دولته في مجال الصحة العامة للمواطنين والحجاج والمعتمرين. فبعد توحيد الحجاز مباشرة أنشأ ((مصلحة الصحة العامة في مكة))؛ للإشراف على الشؤون الصحية في البلاد، وكذلك المسائل الصحية الدولية.

وأولت الدولة رعاية كبيرة بصحة الحجاج، فكانت تجند المتخصصين والإداريين في كل موسم حج، لتقديم أفضل الخدمات الصحية لهم. وأسست مستشفى في منى ومستوصف في عرفات، وسبعة مراكز صحية في أمكنة المشاعر المقدسة، وأنشأت إدارة خاصة بالمحاجر في جدة، ويتبعها محاجر متعددة، وأكثر من اثني عشر مركزاً صحياً في بلدان ساحل البحر الأحمر وحده. ومدت الدولة يدها إلى الهيئات الدولية للتعاون معها والاستفادة من خبراتها. وفي عام ١٣٧٠ هـ حولت (مصلحة الصحة العامة) إلى وزارة، وعين الأمير عبد الله الفيصل وزيراً للصحة والداخلية معاً؛ فتقدمت الرعاية الصحية، وزودت بمعدات وأجهزة حديثة ومتقدمة.

١٠- المواصلات والاتصالات:

اهتم الملك عبد العزيز بالمواصلات والاتصالات الحديثة لضرورة ربط مناطق المملكة المترامية الأطراف، وترسيخ الأمن في ربوعها، وتحسين أوضاع سكانها. وبإدخال السيارات لاستعماله الخاص واستخدام الجهات الرسمية في الدولة، ونقل البضائع والمسافرين. بعد أن كان الناس يعتمدون على الإبل. وبدأت حكومته بتمهيد الطرق وتعبيدها. وكان أول طريق معبد في المملكة يربط مكة بجدة، ثم مد فيما بعد من مكة إلى عرفات، للتسهيل على الحجاج. وطلب الملك من المهندس توينشل عام ١٣٥٨ هـ، دراسة إمكانية إنشاء خط للسيارات من جيزان إلى أبها ثم إلى نجران.

ولما كانت الرمال عقبة أمام المسافرين بالسيارات بين الرياض والدمام، فوجدت الحكومة الحل بإنشاء سكة حديد تربط البلدين، وبعد دراسة المشروع، بدأ العمل بتنفيذه، واحتفل بإنجازه عام ١٣٧١ هـ. وسار القطار من الدمام حاملاً الركاب والبضائع المستوردة إلى عاصمة البلاد.

وواكبت المملكة التطور في وسائل المواصلات؛ فاهتمت بالمواصلات الجوية، وقامت الحكومة بشراء أربع طائرات مدنية عام ١٣٤٨ هـ. ثم توالى شراء الطائرات. وابتعثت الحكومة شباباً سعوديين إلى إيطاليا عام ١٣٥٤ هـ، لدراسة الطيران. وأنشأت ((إدارة الخطوط الجوية السعودية)) ملحقة بوزارة الدفاع. وكان أول مطار نشأ في ذلك العهد مطار جدة.

تابع - المواصلات والاتصالات :

واهتمت المملكة بالمواصلات البحرية، فكانت أسطول نقل بحري، وحسنت الموانئ وأقامت موانئ جديدة، وفي مقدمتها ميناء جدة على البحر الأحمر وميناء الدمام على الخليج العربي. أما الاتصالات الحديثة، فقد انضمت الحكومة إلى اتحاد البريد الدولي، وعقدت اتفاقيات مع دول عدة لتبادل الاتصال معها؛ هاتفياً وبرقياً، وإنشاء شبكة هاتفية في مدن المملكة الكبيرة، وتعميم المراكز اللاسلكية؛ وابتعثت طلاباً إلى مصر وأوروبا للتعلم في هذا المجال فنياً وإدارياً. وفتحت مدارس في المملكة للتعليم والتدريب. وقطعت البلاد في عهد الملك عبد العزيز شوطاً بعيداً للتقدم في هذا المجال الحيوي.

خاتمة عهد الملك عبد العزيز :

عاش الملك عبد العزيز ثمانين عاماً حافلة بالأحداث المهمة. فقد ولد في أسرة حكم، وتعلم وفهم أصول الدين. وشهد في طفولته مشاكل الفرقة بين أفراد أسرته، التي أنهت الدولة السعودية الثانية. وعاش شبابه بعيداً عن مسقط رأسه وقاعدة أسرته. وأدت صفاته القيادية مع تجاربه وخبراته لتكون منه شخصية قيادية رائدة. ونجح تصميمه على إعادة مجد أسرته وتوحيد أجزاء البلاد تحت رايته، فانتطلق عام ١٣١٩ هـ في مسيرة متوهجة، حتى حقق الهدف المنشود بعد ربع قرن من الكفاح. ثم سعى لعقد من الزمان لتثبيت ما وحده والدفاع عنه.

ومن أبرز صفاته القيادية: التدين، والكرم دون تكلف، والشجاعة المتزنة، والذكاء والفراسة، وقوة الإرادة والحرص على المشورة، وحسن القيادة الحربية، ووعي التاريخ، وعمق المعرفة بقومه؛ حاضرة وبادية.

وكانت حياة الملك عبد العزيز عملاً متواصلاً مثمراً، حتى وافاه الأجل في مدينة الطائف في ٢ ربيع الأول عام ١٣٧٣ هـ الموافق ١١-٨-١٩٥٣ م. ونقل جثمانه إلى الرياض ودفن في مقبرة العود. رحمه الله رحمة واسعة.